لغة الأحجار:
بلاغة وصف العمارة الأثرية وأنماطه النحوية

د.إبراهيم عبد التواب حمزة(*)

مستخلص

لوصف العمارة الأثرية أهمية بالغة في تخصصات كثيرة، كالتاريخ والآثار والعمارة والإرشاد السياحي، وتطبيقات متنوعة في التوثيق التاريخي والفني للعمائر وترميمها والبحث العلمي والتعليم والترويج السياحي والتوعية الثقافية وحفظ التراث المادي. ومع هذا تكمن المشكلة في أن المهتم بوصف العمارة لا يجد في الدراسات السابقة تحديدا إرشاديًّا لعناصر وصف العمارة مقترنةً بطرق الوصف وجوانبه النحوية، ولا يجد دراسات تبيِّن دور البلاغة في هذا الوصف. وكذلك لا يكفي التقسيم الشائع للوصف إلى موضوعي وذاتي –بغض النظر عن كونه تقسيمًا حديًّا– ليُفسِّر كيف تتعدد إمكانات وصف العمائر نفسها حين يكون الوصف موضوعيًّا؟ وكيف يكون الوصف الموضوعي للعمارة دقيقًا وشاملًا دون إملال؟ وكيف يكون الوصف الذاتي لها ترويجيًّا وجذابًا دون شطط أو كذب؟

لذلك، يتناول هذا البحث وصف العمارة الأثرية وعناصره وجوانبه النحوية والبلاغية من خلال عينة من ستة مصادر وصفتْ مدرسة السلطان حسن وجامعه. ويهدف إلى استخلاص عناصر وصف العمارة من عينة البحث، وتقسيم الوصف تقسيمات إضافية للكشف عن طبيعته وأساليبه، وفحص العلاقة بين عناصر وصف العمارة والأنماط النحوية للجملة،

* مدرس اللسانيات والبلاغة بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب–جامعة القاهرة .

والكشف عن دور البلاغة في تحسين الوصف وحلّ بعض إشكالاته –ما يمكن تسميته "بلاغة وصف العمارة"– وما يُخِلّ بها من الحشو. يستعين البحث بالمنهج الوصفي مُركِّزًا على المستويين النحوي والدلالي في إطار النظرية الوظيفية النظامية لعنايتها بوظائف اللغة والجوانب الدلالية للتراكيب النحوية. تشير نتائج البحث إلى أنَّ هدف الوصف هو ما يحدِّد طبيعته وطرائقه وبلاغته، وإلى أن هناك تراكيب وأنماطًا نحوية معينة تكاد تلازم بعض عناصر وصف العمارة، كما تشير إلى وجود معايير عامة وبلاغية تسهم في تحسين الوصف وتسهِّل تعليمه وتقييمه من دون أن تَقُصّ أجنحته الفنية.

الكلمات الأساسية: وصف العمارة – مدرسة السلطان حسن وجامعه – اللسانيات الوظيفية النظامية – بلاغة الوصف – الأفعال الوجودية والأفعال الوصفية– الحشو

The Eloquence of :The Language of Stones Monumental Architecture Description and its Grammatical Patterns

Abstract

Monumental architecture description is paramount across various fields, including history, archaeology, architecture, and tourism. It has diverse applications in historical and artistic documentation of buildings and their restoration, research, education, tourism promotion, cultural awareness, and material heritage preservation. A significant challenge, nonetheless, lies in the lack of comprehensive guidelines for the elements of describing architecture in conjunction with its methods, and grammatical aspects. Moreover, studies exploring the role of rhetoric in architecture description are scarce. The common division of description into objective and subjective types, aside from their binariness as an opposite category, is insufficient to explain the multiple possibilities of describing the same building when the description is objective. The research is, consequently, concerned with how the objective description of a building can be both precise and inclusive without prolixity, and how the essential description of a building can be promotional and appealing without excess or falsification. This research, hence, aims to address these gaps by investigating architecture description, It as well as its elements, grammatical aspects, and rhetorical features.

examines a sample of six sources that describe Sultan Hassan Mosque and its School.

The research aims to do the following: (a) extract the elements of architecture description from the research sample, (b) provide additional divisions of description to reveal its nature and methods, (c) examine the relationship between the elements of architecture description and the sentence's grammatical patterns, (d) explore the role of rhetoric in enhancing description and solving some of its problems, which can be termed "the rhetoric of architecture description," (e) identify factors that undermine rhetoric, such as redundancy. The research employs a descriptive approach focusing on the linguistic and semantic levels within the framework of the Systemic Functional Linguistics theory (SFL). SFL is centralized due to its focus on language functions and the semantic aspects of grammatical structures. The research findings indicate that the purpose of the description determines its nature, methods, and rhetoric. Certain grammatical structures and patterns, in addition, are found to be almost always associated with specific architecture description elements. The findings also highlight general and rhetorical criteria that contribute to improving the description, facilitating learning about it, and evaluating it without sidestepping its artistic dimensions.

Keywords: Architecture description, Sultan Hassan Mosque and School, Systemic Functional Linguistics, rhetoric of description, existential verbs, descriptive verbs, redundancy.

مقدمة

العمارة الأثرية مجال بينيّ بطبيعته، يشغل العلماء والمهتمين في تخصصات شتى، على رأسها الآثار والتاريخ والجغرافيا والإرشاد السياحي، ولا سيما المتخصصين في العمارة من المهندسين والفنانين. ويحتاج هؤلاء جميعا إلى الوصف اللغوي للعمائر؛ فمهما تتطور تقنيات التصوير الثابت والمتحرك (الفوتوغرافي والفيديو)، تبقَ اللغة محتفظة بدورها في وصف العمائر وهندستها، وتفسير هيئتها ومنبع جمالها، وأغراض بانيها وصنعته فيها، وسرد تاريخها والبوح بأسرارها وما اعتراها من تغيير من نوازل الدهر أو بيد الإنسان قديمًا أو ترميمًا. ولو صُنِع فيلم وثائقي لمكان أثري بأحدث كاميرات التصوير وتقنياته ثمَّ جُعِل صامتًا دون تعليق صوتي، لذهب كثير من نفعه وجماله. يمتاز الوصف اللغوي عن عدسات الصورة الثابتة والمتحركة أيضًا بقدرته على وصف

أجزاء العمائر التي زالت وبقي منها ما يدل عليها، وعلى وصف هيئات محتملة للمباني لم تكن ولم ينفِّذها البناؤون أصلًا. فالوصف اللغوي يتناول القائم والزائل والمتخيَّل.

لوصف العمارة الأثرية أهمية كبيرة أدركها الجغرافيون والمؤرخون العرب القدماء، فكانوا شديدي الحرص على ذكر العمارة الأثرية وصِفتها. وقد جعل ياقوت الحموي من غايات النظر في آثار الأولين الاعتبار والعظة، وجعل التأليف فيها من الفرض الواجب، إذ قال: "وقد تتعذَّر أَسباب النظر، فيتعين التماس الخبر، فوَجب لذلك علينا إعلام المسلمين بما علِمناه"[١]. وانطلق المقريزي في تأليفه من الغاية نفسها، وجعلها عنوانًا لكتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"[٢]. وإلى جانب الأهمية الدينية والسلوكية يسهم وصف العمارة الأثرية في التوثيق التاريخي والفني للعمائر وترميمها والبحث العلمي والتعليم والترويج السياحي لها (سيُفصِّل البحثُ القول في أهمية وصف العمارة عند تقسيمه للوصف بحسب غاياته وجمهوره).

ولا يغني الوصف الذي قدمَّه السابقون عن وصف اللاحقين؛ لأسباب كثيرة منها أن العمارة نفسها يصيبها التغيُّر، فقبة مسجد السلطان حسن الحالية، مثلًا، مختلفة عن قبته في وصف السابقين، ومنها أن اللغة الواصفة نفسها تتغير بمرور الزمن، فمثلا، ألفاظ "الكَحَّال" و"المكاحل" الحربية و"خازن المكتبة" في عصر المقريزي يقابلها "طبيب العيون" و"المدافع" و"أمين المكتبة" في عصرنا. فالحاجة إلى الوصف اللغوي للعمارة الأثرية تتجدد مثلما تتجدد الحاجة إلى وضع المعاجم اللغوية.

يتناول هذا البحث وصف العمارة الأثرية وجوانبه النحوية والبلاغية من خلال دراسة الوصف المذكور في ستة مصادر وصفَتْ مدرسة السلطان حسن وجامعه وهي عينة هذه الدراسة. ويهدف إلى استخلاص عناصر وصف العمارة من مصادر البحث، وتقسيم الوصف تقسيمات إضافية للكشف عن طبيعته وأساليبه، وفحص العلاقة بين عناصر وصف العمارة والأنماط النحوية للجملة، والكشف عن دور البلاغة في الوصف –ما يمكن تسميته "بلاغة وصف العمارة"– وما يُخِلّ بها من الحشو. وتحقيقًا للأهداف السابقة يتوزع البحث على أربعة مباحث: **المبحث الأول: أقسام الوصف**، وهو يعالج تقسيم الوصف تقسيمات مختلفة

باعتبار حضور الواصف، ومقارنة الموصوف بغيره، وأصل الوضع اللغوي، والمنظور اللغوي. ويكشف عن الجوانب البلاغية لبعض هذه التقسيمات. **المبحث الثاني: عناصر وصف العمارة الأثرية**، وهو يقترح عشرة عناصر لوصف العمارة مستخلصة من عينة البحث ومن ملاحظات الباحث. **المبحث الثالث: عناصر وصف العمارة وأنماط الجملة**، وهو يعتمد على المبحثين السابقين في اختبار فرضية البحث. **المبحث الرابع: ما يقع من حشو في الوصف.** يلي ذلك خاتمة تتضمن أهم النتائج ومجالات التطبيق والإفادة من هذا البحث، ثم المصادر والمراجع.

١-١ مشكلة البحث

الوصف اللغوي فنٌ ومَلَكة يتفاوت فيها الناس حتى الشعراء الذين هم أمراء الكلام. وكثيرًا ما كان الوصف مضمارًا لسباقات بينهم، كشفت عن الوصَّافين الذين فاقوا غيرهم في براعة الوصف وروعته، كامرئ القيس وابن المعتز وابن الرومي والبحتري. ومن الوصَّافين من عُرفوا بوصف شيء بعينه دون غيره كالخيل أو الإبل أو الحرب أو الخمر أو القصور. ومع التسليم بكل ذلك، فالوصف أيضًا مهارة من مهارات التعبير اللغوي يمكن التنظير والتقعيد لها وتعليمها وتنميتها وتقييمها، إنْ وُضِعَت لها معايير عامة ونحوية وبلاغية. وتكمن المشكلة هنا في أن المهتم بوصف العمارة لا يجد في الدراسات السابقة تحديدا إرشاديًّا لعناصر وصف العمارة وطرق الوصف وجوانبه النحوية، وكذلك لا يجد دراسات تبيّن دور البلاغة في وصف العمارة.

وعلى الرغم مما يلاحظه الباحث من ارتباط بين عناصر وصف العمارة وأنماط معينة للجملة، يجد النحو العربي لا يخص هذه العناصر بأي أنماط تركيبية؛ إذ تنميط الجملة فيه تنميط شكلي يسري على كل استعمالات اللغة بلا تمايز، فلا خصوصية نحوية لوصف العمارة. وكذلك يلاحظ الباحث أن التقسيم الشائع للوصف إلى موضوعي وذاتي –بغض النظر عن كونه تقسيمًا حديًّا– لا يكفي ليُفسِّر لنا كيف تتعدد إمكانات وصف العمائر نفسها حين يكون الوصف موضوعيًّا؟ وكيف يكون الوصف الموضوعي للعمارة دقيقًا وشاملًا دون إملال؟ وكيف يكون الوصف الذاتي لها ترويجيًّا وجذابًا دون شطط أو كذب؟ ومن ثم تبرز الحاجة إلى اقتراح

تقسيمات إضافية، وإلى النظر في دور البلاغة في حل إشكالات الوصف. وقد التفت الأستاذ جاستون فييت، وقد كان مديرًا لدار الآثار العربية، إلى بعض هذه الإشكالات، حيث يقول: "وقد يكون في وصف الجامع وصفًا مسهبًا ما يدعو إلى السآمة والملل، بالرغم من أن الجزئيات تشترك في إبراز الكليات، ولكن هذا الأثر بحاجة إلى قلم بليغ وأسلوب شاعري حتى يمكن إبراز دقائقه وجزئياته" (عبد الوهاب، ١٦٧)

١-٢ منهجية البحث

يتبع البحث المنهج الوصفي مُركِّزًا على المستويين النحوي والدلالي في دراسة وصف مدرسة السلطان حسن وجامعه كما هو وارد في عينة البحث. وهي ستة مصادر، تمتد زمنيًّا من عصر المقريزي إلى عصرنا (انظر قائمة المصادر). ويتحرك البحث في إطار النظرية الوظيفية النظامية، وهي نظرية تركز على الجانب الوظيفي للغة، وتُعنى بتناول النحو من منظور دلالي[٣]، فتربط الوظائف العليا للغة (الوظيفة الفكرية والتواصلية والنصية) بالتركيب النحوي. وتهتم بمفهوم الاختيار في كل مستويات اللغة[٤]، وهذا يجعلها تتقاطع مع علم معاني النحو في البلاغة العربية. يُقدِّم النحو الوظيفي النظامي تنميطًا وظيفيًّا للجملة يربط أنماط الجملة بالوظيفة التي تقوم بها في الواقع. وهذا الربط ظاهر في مصطلحاته للجمل، مثل: الجملة التعيينية، والجملة الوصفية، والجملة الوجودية[٥].

وفي ضوء هذا الإطار النظري يختبر البحث فرضية وجود علاقة بين عناصر وصف العمارة والتراكيب النحوية. ويفحص البدائل اللغوية للتعبير الواصف وما لها من أبعاد بلاغية تخدم وظيفة الوصف وتحل إشكاله وتُحسِّنه. وهذا استلزم استخلاص عناصر وصف العمارة من عينة البحث، وتقسيم الوصف تقسيمات إضافية تكشف عن الاختيارات اللغوية التي انتقاها الواصفون.

وقد اختار البحثُ مدرسةَ السلطان حسن وجامعه نموذجًا لدراسة الوصف اللغوي للعمارة الأثرية؛ لتفردهما المعماري، وتوافر المصادر القديمة والحديثة التي عُنيت بوصفهما؛ ولأن للعمارة الدينية –ولا سيما عمارة المساجد– مكانة في نفوس الشعوب المسلمة من جهة، ولها أبعاد

دينية–سياسية تتعلق بالحاكم من جهة أخرى؛ ولذلك حرص الحكَّام عبر العصور حتى أشدها ضعفًا اقتصاديًّا على عمارة المساجد في أفخم هيئة، ليكونوا من أهل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة، ١٨]. وهذا كفل للمساجد نفقات البناء، واختيار أمهر المهندسين والحرفيين، فأسهم في ثرائها المعماري والفني، فأثار الأقلام للإبداع في وصفها.

ويحاول البحث الإجابة عن الأسئلة التالية:

ما التقسيمات الممكنة لوصف العمارة؟ وما أبعادها النحوية والبلاغية البارزة؟

ما بلاغة الوصف الموضوعي والوصف الذاتي؟

ما صور حضور الواصف في الوصف الذاتي؟ وما أفضل قدر لهذا الحضور؟

كيف يكون الوصف دقيقًا وشاملًا دون إملال؟ وكيف يكون ترويحيًّا وجذابًا دون شطط أو كذب؟

ما عناصر وصف العمارة الأثرية؟

هل من علاقة اقتران قوية بين بعض عناصر وصف العمارة وبعض أنماط الجملة؟

ما دور البلاغة في الوصف وتحسينه؟ وما أنماط الحشو الذي قد يقع في الوصف؟ وما أمثلته في عينة البحث؟

١-المبحث الأول: أقسام الوصف

يعرِّف قدامة بن جعفر الوصف بأنه "ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات". ويرى أن أحسن الوصف ما اشتمل على ذِكر الخصائص المميزة للموصوف، أي ما يتفرَّد به عن جنسه أو بوجه عام[٦]. فمَن يصف الفيل ولا يذكر خرطومه أو الزرافة ولا يذكر رقبتها أو الأسد ولا يذكر لِبدته، فوصفه ناقص. وكلما كان الشيء مركَّبًا، تفاوت الناس في وصفه. فوصف مكعب موضوع على ورقة بيضاء لن يختلف فيه الناس، لكنَّ وصف قصر مكعب في وسط بستان وصفًا خارجيًّا وداخليًّا وتاريخيًّا سيكون مسرحًا لضروب من فنون الوصف التي ستتفاوت حسب الاستيعاب لأجزاء الموصوف وصفاته ودقة الوصف وجماله...إلخ.

من التقسيمات الشائعة للوصف تقسيمه بحسب مدى مطابقته للموصوف أو حضور الواصف فيما يصف إلى: (أ) وصف موضوعي أو نقلي أو علمي (ب) ووصف ذاتي أو وجداني أو أدبي. يُحدِّد البحثُ في هذا القِسم الصور المختلفة لحضور الواصف فيما يصف، ويحاول أن يستنبط بلاغة الوصف الموضوعي وبلاغة الوصف الذاتي. ويقترح تقسيمات أخرى للوصف، باعتبارات مختلفة: بحسب مقارنة الموصوف بغيره، وأصل الوضع اللغوي، والجمهور المستهدف وغاية الوصف، والمنظور اللغوي.

٢-١ حضور الواصف

ترى سيزا قاسم في دراستها لوصف المكان في الرواية أن "الوصف قد يقوم على مبدأين متناقضين: المبدأ الأول هو الاستقصاء. والمبدأ الثاني يقوم على الانتقاء"[٧]. وهذه الرؤية هي انعكاس للتقسيم التقليدي للوصف إلى وصف موضوعي ووصف ذاتي، إذ يقترن عادةً الوصف الموضوعي بالاستقصاء، والوصف الذاتي بالانتقاء. تقول سيزا قاسم: "إن ما يهمنا هو التفرقة بين الوصف التصنيفي الذي يحاول تجسيد الشيء بكل حذافيره بعيدًا عن المتلقي أو إحساسه بهذا الشيء، والوصف التعبيري الذي يتناول وَقْع الشيء والإحساس الذي يثيره هذا الشيء في نفس الذي يتلقاه. أما الأول فيلجأ إلى الاستقصاء والاستنفاد، بينما يلجأ الثاني إلى الإيحاء والتلميح"[٨].

ومع التسليم في وصف المكان في الرواية أو في الواقع بأهمية تقسيم الوصف إلى موضوعي/ استقصائي/ صريح في مقابل ذاتي/ انتقائي/ إيحائي، يرى البحث أنه ينبغي ألا يُنظَر إلى الطرفين على أنهما طرفان متناقضان، والتقسيم حديّ، بل هما متضادان وبينهما طيف من الدرجات. يحاجّ البحث هنا بأن هذا التقسيم الثنائي وغيره من التقسيمات التي سيقترحها ينبغي ألا تقودنا إلى رؤية حديَّة؛ فلو كانت هناك موضوعية مطلقة، لاتفق الناس جميعا في وصف الأشياء المعقدة والمركبة. وواضحٌ أن الذاتية أو حضور الواصف أو الانتقاء أو الإيحاء كلها ذات درجات. وتركيز البحث على مسألة الدرجات نابعٌ من أن جميع مصادر البحث التي وصفت مدرسة السلطان حسن وجامعه –كما سنرى– قد مزجت الموضوعي بالذاتي بدرجات متفاوتة تعطي

لكل وصف نكهة مختلفة، ونابع أيضًا من أن ما يقترحه البحث لتجنب الإملال في الوصف الموضوعي الاستقصائي قائم على مزجه بشيء من الذاتية والمجاز وعلى تنويع المنظور اللغوي للوصف.

إذن، فليس حضور الواصف مسألة حديَّة (صفر أو واحد، غائب أو حاضر)، بل هي متدرجة على مقياس مُتَّصِل من قيمة صغيرة جدًا غير صفرية إلى قيم كبيرة جدا حيث تنقلب المسألة فتغدو وصفًا لذات الواصف مع اتخاذ المكان معادِلًا موضوعيًّا أو مع أدنى إشارة للمكان. ويتضمن هذا أن البحث ينكر الحالة الصفرية التي يغيب فيها الواصف وهو يصف شيئًا مركبًا. وقد يقال إن الوصف العلمي يصل إلى حالة الموضوعية المطلقة حيث يغيب الواصف تمامًا، كما في وصف عينة من مسحوق النحاس بحساب وزنها الدقيق ولونها وخصائصها. والجواب أنَّ هذا إنْ صحّ، فإنما يصحّ في وصف الأشياء البسيطة لا المركبة ولا المعقدة. وبرهان ذلك هو وصف العلماء للذرة –في الفيزياء أُمّ العلوم– فلدينا مثلا نموذج دالتون أو وصفه للذرة، وذرة رذرفورد، وذرة طومسون، وذرة بور، ...إلخ. وهذا التنوع في الوصف راجع لا شك إلى تنوع الواصف لا الموصوف "الذرة" نفسها. فهذه النماذج وما سيستجدّ بعدها متأثرة بمعارف الواصف وتصوراته والحركة العلمية العامة في عصره. فلا ينحصر حضور الواصف في الحضور الانفعالي أو الوجداني أو الانتقائي لما يصف. وسيُفصِّل البحثُ القول في مسألة حضور الواصف في الوصف المعماري في قسم "الوصف الذاتي وبلاغته".

ولو تركنا قلمَ الوصف اللغوي وأمسكنا بعدسة "الكاميرا" ابتغاء الموضوعية المطلقة، وطلبنا من ثلاثة مصوِّرين "فوتوغرافيين" أن يلتقطوا لنا صورًا للقَصْر الذي ذكرناه سابقًا بغرض التوثيق العلمي الدقيق لحالته الراهنة. فهل نتوقع أن يتطابق إنتاج المصورين الثلاثة في عدد ما التقطوه من صور، والأشياء التي انتقوا تصويرها، وزوايا الكاميرا في تصويرهم إياها، وقُربهم أو بُعدهم عن الأشياء المُصوَّرة[٩]، ...إلخ؟ كل ما سنجده من اختلافات هي اختلافات ذات دلالة وراجعة لاختيار الواصف أو المصوِّر. وحيثما وُجِد اختيار، وُجِدت بلاغة.

(أ) الوصف الموضوعي وبلاغته

عقد ابن رشيق للوصف بابًا في كتابه "العمدة في محاسن الشعر" رأى فيه أن أكثر الشعر داخل في باب الوصف، وأن الوصفَ كثيرًا ما يشتمل على التشبيهات. وذَكَرَ أن "أحسن الوصف ما نُعت به الشيء حتى يكاد يمثِّله عِيانًا للسامع"[١٠]. واضح أن كلام ابن رشيق ينطبق على النوع الأول من الوصف: الوصف الموضوعي. ووظيفته هي التي تحدد لنا بلاغته. فهذا النوع وظيفته أن ينقل لنا صورةً طبق الأصل للموصوف، تُستعمَل –في حالتنا حالة وصف العمارة– في نقل الوصف الدقيق للمعماريين والأثريين دون مبالغة أو زيادة أو نقص؛ للانتفاع به في أغراض التوثيق التاريخي للعمارة، وترميم ما تغيَّر عن صورته الأولى، واستلهام الطرز المعمارية والفنية، إلى غير ذلك من الأغراض.

ولذلك تقاس بلاغة الوصف هنا بمعيارين الاستيعاب والدقة: باستيعابه لأجزاء الموصوف وصفاته ودقته في وصفها. يعبِّر قدامة بن جعفر عن هذه البلاغة بقوله: "ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني كان أحسنهم وصفًا مَن أتى في شعره أكثر المعاني التي الموصوف بها مركبة فيها، ثم بأظهرها فيه، وأولاها به، حتى يحكيه ويمثِّله للحس بنعته. وقال بعض المتأخرين: أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرًا"[١١]. ويقول إيليا حاوي "إن فضيلة الوصف النقلي هي في دقته وصحة تشابيهه"[١٢].

يجدر هنا الالتفات إلى دقة قدامة في قوله: "أكثر" وليس "كل"، فهذا ينمّ عن أنه يرى أن الاستقصاء في المركبات عسير أو ممتنع. ويكاد يكون قوله "أظهرها فيه وأولاها به" مرادفًا لمصطلح "السمات المميزة" (distinctive features) لدى علماء النفس المعرفيين في دراستهم للمفاهيم.

يتقاطع فن الوصف اللغوي هنا مع فنون بصرية أخرى كالرسم والتصوير، لفضيلة البصر في الوصف، غير أن هذا النوع من الوصف ينبغي أن يستعين بالحواس الأخرى، وإن كانت أقل حظًّا في هذا الشأن.

(ب) الوصف الذاتي وبلاغته

يتسم الوصف الذاتي بحضور ذات الواصف فيما يصف. وهذا الحضور له مظاهر متنوعة. وقد قدَّم مارتن ووايت (Martin & White 2003) تنظيرًا موسَّعًا لموقف المتكلم من كلامه يمكن في ضوئه القول إن حضور الواصف قد يظهر من خلال:

(١) تعبيره عن إحساس أو انفعال كالسرور والحزن،

(٢) أو حُكْمه (نقد، مدح، ذم، تأكيد، شكّ...) في ضوء المعايير الثقافية والدينية أو القانونية،

(٣) أو تقييمه الجمالي للموصوف، كقوله: جميل، رائع، عجيب، مدهش[١٣].

(٤) وقد يتمثَّل حضور الواصف في اختياراته، التي هي جزء من عقله ونفسه، فيما يصطفيه مِنْ مفردات الواقع وعناصر الموصوف ليخصه بالوصف دون غيره، ومِنْ مفردات اللغة وتراكيبها.

(٥) وفي لغته المجازية، في ابتكاره لها، وفيما تُحدِثه من تشخيص أو أنسنة للجمادات، أو إحياء للموات أو تجسيد للمعنويات.

(٦) وفي تشبيهاته، في ابتكاره لها، وفيما تصنعه مِن مبالغة أو تزيين وتحسين أو تشويه وتقبيح؛ لأجل الترغيب أو التنفير. وقد أحسن ابن الرومي في بيان قدرة الوصف على تحسين الشيء نفسه أو تقبيحه، إذ قال في وصفه العسل:

تَقول هَذَا مُجاج النَّحْل تمدحه ... وَإِن ذممت فَقُل قيء الزنابير

مدحٌ وذمٌ، وَعين الشي وَاحِدَة ... إِن الْبَيَان يُرِي الظلماء فِي

(٧) ولا يقتصر حضور الواصف على إضفاء مشاعره وأحكامه على الموصوف كما هو، بل ربما أعاد بقوة خياله ترتيب مفردات الواقع وتأليفها وتجميعها في صورة جديدة. و"التشبيه إنما هو للقوة المخيِّلة، وهي التي تُركِّب أنواعًا من التراكيب، كرأس أسد على ابن آدم، ... وجبل زمرد وبحر زنبق... وتُخيِّل الهلال زورق فضة والشقيق أعلام ياقوت، ...لأن الحواس الباطنة المدركة للجزئيات إما أن تكون مدركة فقط أو تكون مُتصرِّفة"[١٥]. من نماذج هذه

التشبيهات وصف الجامع: "كأنه كتلة عظيمة من الحجر في شكل المعابد القديمة" (هرتس، المقدمة[١٦])

ويرى البحث أنَّ هدف الوصف هو ما يحدِّد طبيعته وطرائقه وبلاغته. فمع التسليم بحضور الواصف وقيمته في وصف العمارة الأثرية، ينبغي أن يركز الوصف على العمارة، وليس على ذات الواصف، اللهم إلا أن يوجهه هدف الوصف إلى أن يسلك مسلك الشعراء مثل البحتري الذي جعل ذاته مفتتح وصفه لإيوان كسرى: "صُنتُ نفسي..." ومختتمه "وأراني..."، وجعل القصيدة قسمةً بينه وبين الإيوان. وكان وصفه للإيوان تعزيًا وتأسيًا على حاله ومعادلًا موضوعيًا لذاته، فهو يتماسك أمام زعزعة الدهر، مثلما يتجلد الإيوانُ تحت وطأة الدهر، يقول في البيت الثاني والبيت التاسع والثلاثين:

٢ وتماسكتُ حين زعزعني الدهْـ ـر التماسًا منه لتعسي ونكسي

٣٩ فهو يُبدي تجلُّدًا وعليه كلكل من كلاكل الدهر مُرسي[١٧]

ومن نماذج الوصف الذاتي:

- "البوابة الكبيرة المزخرفة بنقوشات عجيبة" (هرتس، ٢)

الوصف "عجيبة" ذاتي نفسي راجع إلى الواصف، وهو مما يختلف فيه الناس، فقد يراها غيرُه مألوفةً أو تقليدية، بخلاف الوصف الموضوعي لو قال مثلًا (بزخارف كتابية أو نباتية أو هندسية...)

- جامع السلطان حسن "جميل بل من أجمل مباني القاهرة بل الدولة المصرية بأسرها" (هرتس، ١٦). وهنا مثال على الوصف الإفرادي "جميل" الذي يتلوه وصف مقارِن عامّ ثم وصف مقارِن أعمّ.

- "المقصورة مزدانة بتنورين جميلين من النحاس ... باب التربة في غاية الجمال وأنه من النحاس المكفَّت بالفضة والذهب" (هرتس، ١٩)

وسيقابلنا كثير من الوصف الذاتي في بعض النماذج التالية.

٢-٢ الجمهور المستهدف وغاية الوصف

لوصف العمارة الأثرية أهمية كبيرة يمكن النظر إليها من زاويتين: (أ) زاوية الوصف الدقيق الشامل، وجمهوره المستهدف في الأساس الأثريون والمعماريون والفنانون، ومن غاياته التوثيق التاريخي والفني والإصلاح والترميم والبحث العلمي والتعليم. (ب) وزاوية الوصف الترويجي الجذَّاب، وجمهوره المستهدف في الأساس هو عامة الناس من أهل المكان والزوّار والسيّاح، ومن غاياته الجذب السياحي وإثارة الاهتمام العام بالإرث الحضاري.

يسهم الوصف الدقيق الشامل للعمارة الأثرية في التوثيق التاريخي لحالتها الراهنة بتشخيصها؛ فيُعلم ما أصابها من تغيير بمقارنتها بصورتها الأولى التي سجَّلها المؤرخون والأثريون القدامى من ناحية، ويكون هذا التوثيق من ناحية ثانية سِجِلًا مهمًّا يُعْلَم به بعد ذلك أي فَقْد أو نهب لمقتنيات أو تهدم أو تلف أو نحوه، وتعتمد عليه عمليات الإصلاح والترميم. وهذا له دور كبير في حفظ التراث الثقافي المادي الذي يمثِّل ذاكرة حية ماثلة أمام أعين الناظرين. وهذا الوصف له دور علمي وتعليمي؛ إذ يقدم لدارسي العمارة والفنون مرجعًا في الطُرُز المعمارية وتقنيات البناء والتصاميم والزخارف والخطوط التي استُعمِلت في عمائر العصور السالفة.

أمَّا الوصف الترويجي الجذّاب للعمارة الأثرية، فيكون للترويج السياحي وجذب الزائرين للاستمتاع بجمال العمائر وقصص أهلها وجوانب من حياتهم وثقافتهم. وبطبيعة الحال يُسبِّب نشاط حركة السياحة في المواقع الأثرية إلى إنعاش الاقتصاد المحلي في قطاعات الإقامة والنقل وتجارة الهدايا والتذكارات وقطاعات أخرى كثيرة.

ويُحتاج إلى هذا الوصف الترويجي في عمل كُتيِّبات الإرشاد السياحي ونشرات ومطويات الترويج السياحي، إذْ ليس مناسبًا في هذه المختصرات أن يكون الوصف شاملًا، ولا لزامًا أن يكون الوصف دقيقًا، بل يكون جميلًا جذابًا لجمهور الناس ومثيرًا لفضولهم ومُحفِّزًا لهم على زيارة

الموقع الأثري. وهذا يؤكد ما يذهب إليه البحث من أن غاية الوصف هي ما يُحدِّد طبيعته وطريقته وبلاغته. وما يُحتَرز منه هنا ويُحتَرَز منه في كل ترويج أو إعلان هو أن ينجرف الواصف من التزيين والمبالغة إلى الشطط أو الكذب الذي يفاجئ الجمهور بأن ما في الواقع أدنى بكثير مما أُعلِن عنه.

وللوصف بنوعيه السابقين دور مهم في صناعة الأفلام الوثائقية التي يمكن من خلالها تحقيق كثير من الغايات السابقة فضلا عن التوعية التاريخية والثقافية.

٢-٣ مقارنة الموصوف بغيره

من تقسيمات الوصف المقترحة التقسيم بحسب مقارنة الموصوف بغيره، فنقسِّمه إلى (أ) وصف إفرادي، كقولنا (هو كبير) (ب) ووصف مقارِن بشيء واحد، كقولنا: (هذا أكبر من ذاك) أو مقارن في مجموعة خاصة أو على سبيل التعميم، كقولنا: (هو الأكبر). وللتعميم والتخصيص درجات أيضًا.

فمن نماذج الوصف الإفرادي:

- "على أن هذا الازورار ...لا يزري بشيء من جماله الرائع" (هرتس، ١)

أما نماذج الوصف المقارِن مع التفضيل العام أو المطلق، فكثيرة في حالة مدرسة السلطان حسن وجامعه؛ فقد أجمع واصفوه على تفرده، ومن ذلك قول المقريزي:

- "وعمله في أكبر قالب وأحسن هندام وأضخم شكل، فلا يُعْرَف في بلاد الإسلام معبدٌ من معابد المسلمين يحكي هذا الجامع" (المقريزي، ١٢١/٤)
- "القبة العظيمة التي لم يُبْنَ بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها"
- "المنبر الرخام الذي لا نظير له"
- "الباب النحاس الذي لم يُعْمَل فيما عُهِدَ بابٌ مثله" (المقريزي، ١٢٢/٤)

لا شك أن وصف المقريزي السابق للقبة والمنبر والبوابة مثير لقارئ التاريخ ومُشوِّق لجمهور الناس لزيارة الجامع، لكنه مع صِدْقه مُبْهَم، لا يغني كثيرًا في معرفة وصف القبة والمنبر والبوابة، فلو أن الجامع احتاج مثلًا إلى ترميم القبة بعد انهدامها، لما انتفع الأثريون والمعماريون شيئًا من

وصف المقريزي لها. فكيف يتخيَّل المرءُ صورةَ شيء لا مثيل له ولا نظير له ولا عهد له به من قبل؟

وهذا جزء من إشكالية الوصف بالنظر إلى هدفه. ومع ذلك فقد أصاب المقريزي وأبدع في وصف إيوان القبلة؛ إذ وصفه وصفًا ذاتيًّا جذابًا بأنه من عجائب البنيان، ثم ذكر بُعْديه بدقة "خمس وستون ذراعًا في مثلها"، ثم بيَّن أنه أكبر من إيوان كسرى بخمس أذرع. فجمع بين الوصف الذاتي والموضوعي. ولو سار على الطريقة المنتقَدة آنفًا، لربما قال (هو إيوان لم يبنَ أعظم منه من قبل) واكتفى. ومن نماذج الوصف المقارِن أيضًا:

- "وهو واحد من أجمل عمائر القاهرة والإمبراطورية بكاملها" (وصف مصر، ١٠/١٨٤)
- "هذا العمل الكبير الذي لا نظير له في كل العالم الإسلامي" (من مقدمة د. مُحَمَّد صابر لكتاب هرتس)
- قال غرس الدين الظاهري "أما مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة المنصورة فليس لها نظير في الدنيا" (هرتس، ١٤)
- "يقول عنها ابن تغري بردي إن هذه المدرسة ومئذنتها وقبتها من عجائب الدنيا، وهي أحسن بناء بُني في الإسلام" (عبد الوهاب، ١٦٦)
- "ويصفه عبد الغني النابلسي...فيقول: (إن هذا الجامع من أعظم الجوامع على شكل القاعة العظيمة" (عبد الوهاب، ١٦٧)
- "ويقول الورثيلاني الرحّالة المغربي ... (إنه مسجد لا ثاني له في مصر ولا في غيرها من البلاد "(عبد الوهاب، ١٦٦-١٦٧)
- "وكتب عنه المصوِّر لينوار: (إن جامع السلطان حسن المملوكي يُشرِف على القاهرة كلها، وأسلوب بنائه من أرقى الأساليب المعمارية، ومساحته عظيمة، ولذا يعد أجمل جامع في الشرق كله بلا نزاع" (عبد الوهاب، ١٦٨).

من الطريف ملاحظة ما في عبارة "أجمل... بلا نزاع" من تناقض؛ يتفق الناس على الأكبر حجمًا، لأن الكبر وصف موضوعي، لكن العادة أن يختلفوا في تحديد الأجمل، لأن الجمال

وصف فيه بُعدٌ ذاتي، لا سيما عند المفاضلة.

٢-٤ أصل الوضع اللغوي

ينقسم الكلام عامةً بحسب أصل الوضع إلى حقيقة ومجاز. وهذا التقسيم ينطبق على وصف العمارة فمنه وصف حقيقي ووصف مجازي. وهذا موضع يبرز فيه "فن" الوصف والبراعة في توظيف المجاز. فقد يشطح الواصف ويهيم في أودية المجاز بعيدًا عن الموصوف وحقيقته، وقد يمزج الحقيقة بالمجاز أبرع مزج. ولبيان ذلك نعرض النماذج التالية:

"إننا لا نملك تجاه هذا الأثر الفريد إلا أن نحس بأننا بين يدي سيمفونية كاملة، اشترك فيها الأوركسترا بكافة عناصره في عناية ودقة بالغتين، وبإحساس مرهف مدرك للفروق مهما دقَّ شأنها، فليست هذه التحفة الموسيقية مجرد تآلف بين عدد محدود من النغمات، أو ربط بين مجموعة محدودة من الألحان فحسب، بل إنها شيء يفوق ذلك كله، فبفضل التوافق الهارموني وسحر التوزيع الأوركسترالي يرتفع العمل ككل واحد إلى ذروة التعبير الفني... جاستون فييت" (والي، ٣)

وقد أورد البحث هذا الاقتباس –على طوله– لأنه نموذج جيد يُبرِز كيف يمكن أن يطغى المجاز ويتجاوز المحمود. فالوصف هنا شاعري جميل، لكنه يقول القليل عن المبنى الموصوف، والكثير عن استعارة الموسيقى المُرشَّحة ٧ مرات (سيمفونية←الأوركسترا←التحفة الموسيقية←النغمات←الألحان←التوافق الهارموني←التوزيع الأوركسترالي)، وبعض هذا الامتداد بالصورة أو الترشيح كان كافيًا.

تصف النماذج الخمسة التالية الشيء نفسه، فقد اختار عبد الوهاب التعبير بكلمتين: "يُحلِّي نهاية":

- "ويحلِّي نهاية الوجهات مقرنصاتٌ بارتفاع ستة مداميك" (عبد الوهاب، ١٧٠)

مع ملاحظة عدم الدقة في كلمة "نهاية" التي لا يُشترط أن تكون نهاية علوية. واختار والي كلمتين "بتحلية نهاية":

- "قام المعماري بتحلية نهاية الكتلة عند تقابلها مع السماء بطول الواجهات بستة مداميك من المقرنصات" (والي، ٢٢)

والمراد هنا التعبير عن ثلاثة معانٍ: الإحاطة والعلوية والزينة، فنقول مثلًا: (حول أعلى الواجهات مقرنصات تزينها/ تحلّيها)، لكن المجاز في النماذج التالية يعبّر بكلمة واحدة عن هذه المعاني الثلاثة مجتمعةً: "يتوّج/متوَّج". فالمجاز فيه اختصار وتصوير ولا يعارض الحقيقة المعمارية، فالتاج زينة، ويحيط بالرأس، وفي أعلى الإنسان.

- "يبلغ عدد مداميك المقرنصات فيها إلى الستة وهي مُتوَّجة بالزخارف الجبسية" (هرتس، ٢١)
- "الكرنيش الكبير المتوَّجة به جدرانُ الجامع" (هرتس، ٢٦)
- "يتوّج المدخل الرئيسي ستة صفوف من الدلايات" (ماهر، ٢٨٣)

وبطبيعة الحال، هذا مجال فني مضماره فسيح، وثمة بدائل وتعبيرات كثيرة أخرى، فمن الممكن التعبير مجازيًّا عن هذه المعاني الثلاثة بـ(تُكلِّل، ومُكلَّل)، وإن كان التاج أفخم.

ويمكن أن ينتفع الوصف الموضوعي بالتشبيهات والمجازات لدفع الإملال الناتج عن الاستقصاء في الوصف، فمثلًا، إن كانت حقيقة الوصف هي "ارتفاع المئذنتين ٨٠ مترًا"، فقد يمزجها بالتشبيهات والمجازات، فيقول:

ترتفع مئذنتا المسجد إلى ٨٠ مترًا مثل كفي الداعي تناجيان السماء.

ترتفع مئذنتا المسجد إلى ٨٠ مترًا كَبُوقين عظيمين يعلنان الصلاة.

ترتفع مئذنتا المسجد إلى ٨٠ مترًا كأنهما قلمان يخطان ابتهالات الدعاة على صفحة السماء...

ومن النماذج التي ذَيَّلت الوصف الموضوعي بالتشبيهات والمجاز:

- "تشبه العمارة الأثرية كتابًا ضخمًا صفحاته من الحجارة المنقوش عليها تاريخ البلد" (هرتس، ٤)
- جاستون فييت: "إن جامع السلطان حسن ... كالمعابد القديمة يتحدى الزمن" (عبد الوهاب، ١٦٧-١٦٨)
- "ويقول الورثيلاني الرحالة المغربي: (مسجد ... كأنه جبال منحوتة، تصفق الرياح في أيام الشتاء بأبوابه كما تفعل في شواهق الجبال"(عبد الوهاب، ١٦٦)

٢-٥ المنظور اللغوي للوصف

يقترح البحث أن نقسِّم وصف العمارة بحسب طريقة الوصف إلى قسمين كبيرين: المنظور السكوني، والمنظور الموحي بالحركة بأقسامه المختلفة.

٢-٥-١ المنظور السكوني

من الخصائص النحوية للجملة العربية أنها تُعبِّر عن بعض العلاقات (كالتعيين والوجود والوصف والاختصاص) دون الحاجة إلى الأفعال النحوية، فيستطيع المرء، على سبيل المثال، أن يصف موقع مبنًى وموقع جميع أجزائه من دون ذِكر فِعْل نحوي واحد. وربما يبدو هذا طبيعيًّا؛ فالمبنى جامد ولا فِعلَ ولا حدثَ يحدث به. في النموذج التالي خمس جمل متتالية خالية من الفعل النحوي إلا فعلًا وقع نعتًا "يوصلان"، وهو مجاز مرسل ميت يُوهم بالحركة. وهذه الجمل تصف لنا مشهدًا جامدًا:

- "وفي وسط الإيوان الشرقي محراب جميل، وعلى يمينه منبر من الرخام الأبيض، وبجانبي القبلة التي في الواجهة الشرقية بابان يوصلان إلى القبة العظيمة، ومساحتها ٧٥١ مترًا مربعًا، وارتفاع جدرانها ٣٠,٢٠" (ماهر، ٢٨١)

الوصف هنا ساكن سكونَ الموصوف، وإنْ طال الوصف واستمر هذا المنظور دون تنويع أو إيهام بالحركة، فقد يقلِّل هذا من متعة القارئ أو انتباهه أو يدفعه للملل دفعًا. ومن ثَم يستعين الواصف ببعض الحيل النحوية الأسلوبية والبلاغية لتحريك هذا السكون.

٢-٥-٢ المنظور الموحي بالحركة

٢-٥-٢-١ منظور الواصف

يحاول الواصف هنا أن يتغلب على سكون المكان بأن يستعمل الأفعال النحوية ليجول في المكان ببصره، مُتحدثًا بضمير المتكلم للجمع، ويُشرك القارئ معه في جولته:

- "وعلى المبنى من الخارج نشاهد أيضًا نقوشًا...وحين نُلقي، من ارتفاع هذا المكان الأخير [القلعة]، نظرةً على هذه المدينة الكبيرة وما وراءها... نَجِد أن هذا الجامع يشكِّل منظرًا رائعًا" (وصف مصر، ١٠/١٨٤-١٨٦).

نلاحظ هنا أن الفعل النحوي "يشكِّل" ليس فعلًا حقيقيًّا يدل على فِعْل أو حدث في الخارج؛ فالمعنى (منظر الجامع رائع). ولو سألنا ماذا حدث أو يحدث؟ فلن تكون الإجابة: (شكَّل أو يشكِّل الجامع منظرًا رائعًا).

- "ويصفه عبد الغني النابلسي... فيقول: (إن هذا الجامع ... نظرنا إلى إيوانه القبلي الذي فيه المنبر والمحراب فإذا هو إيوان كبير عظيم)" (عبد الوهاب، ١٦٧)

٢-٥-٢-٢ منظور السائح

إذا كان لا سبيل لنا إلى تحريك المكان الجامد، يمكننا أن نُحرِّك شخصًا في المكان فيجول ويطوف، ويرى ويسمع ويشم ويلمس، ويتأمَّل ويتعجَّب. فيبثّ الحياة في الوصف ويجعله سينمائيًّا نراه بعيون هذا الشخص، ومن نماذجه:

- "وإذا سار الإنسان خلف سور الجامع يكون على يمينه الوجهة الجنوبية الغربية... ومن الدركة يتوصل الإنسانُ بسلم ذي سبع درجات إلى دهليز ينثني دفعة واحدة إلى اليسار" (هرتس، ٢)
- هذا النموذج يرويه سائح فعلًا: "بينما أنا عائد إلى البيت رأيت داخل المدينة تجاه القلعة جامعًا لم أر أجمل منه منظرًا ولا أبدع منه شكلًا ... وأحسن ما راقني منه قبته وشكلها الغريب الذي لم أشاهد مثله" (هرتس، ١٥)

٢-٥-٢-٣ منظور أفعال الوجود وأفعال الوصف

يقصد البحثُ بأفعال الوجود الأفعال الدالة على معنى الوجود المطلق مثل: (يوجد، ويقع، ويكون) أو الوجود على حالة خاصة مثل (يحيط، يحدق بـ، يطوّق، يتوسط، يجاور، يوازي، يعلو...) ويقصد بأفعال الوصف الأفعال الدال على معنى الوصف المطلق، مثل: (يتصف[١٨]) أو الوصف الخاص، مثل (يتسم، يتحلَّى) أو الدلالة على المشابهة بين شيئين، مثل: (يشبه، يحكي، يحاكي). كل هذه الأفعال قد تُستعمل في وصف العمارة على سبيل التنويع والإيهام بالحركة للابتعاد عن المنظور السكوني. وهذه الأفعال حين تُستعمل في وصف العمارة لا يكون لها حظٌّ من الفعليّة الحقيقية إلا الدلالة على الزمن الحالي[١٩]، ولا دلالة فيها على الحدوث. فمثلًا، الفعل "يحكي" في قول المقريزي: "لا نعرِف معبدًا... يحكي هذا الجامع" معناه "مِثْل"، ولو قال: (لا نعرِف معبدًا... مثل هذا الجامع) لما اختلف المعنى. سنُفصِّل القول في هذه المسألة في قِسم "عناصر وصف العمارة وأنماط الجملة".

٢-٥-٢-٤ المنظور التخيُّلي

(أ) المنظور التخيُّلي الإحيائي

وهذا في حقيقته قِسم خاص من المجاز، يُقصد به ما كان على سبيل التشخيص أو أنسنة المكان. وإنما ذُكر هنا تخصيصًا لقدرته على كسر صمت المكان وسكونه واستنطاق جدرانه، إذ تستطيع عصا المجاز الساحرة أن تبث الحياة في المكان. ومن نماذجه:

- "يقوم جامعُ السلطان حسن مختالًا بإشرافه وفضله على الكل، يستوقف النظرَ بشامخ بنيانه، ثم يستوجب التأملَ لدقائقه" (هرتس، المقدمة)
- "تقف مدرسة السلطان حسن شامخة وشاهدة على العمارة المملوكية في القاهرة المحروسة وفي مصر الإسلامية، وبل وفي العالم الإسلامي... [يقول جاستون فييت:] (إن من يتأمل البناءين تبدو القلعة في عينه جاثمة تستعد للوثوب والانقضاض، على حين تبدو المدرسة هادئة سامقة متعالية ترنو للقلعة المتحدية في شموخ الواثق دون مبالاة)" (والي، ٦)

- "إن حق لمصر الفرعونية أن تفخر بأهرامها، فإن لمصر الإسلامية أن تتيه عجبا بمدرسة السلطان حسن التي لا يعادلها بناء آخر في الشرق بأجمعه" (عبد الوهاب، ١٦٦)

(ب) المنظور التخيُّلي الاستحضاري

وهو منظور تاريخي يقوم على تخيُّل كيف كانت عملية البناء، وكيف استُعمل المبنى قبل أن يصير أثرًا. وهذا المنظور لما فيه من تخيُّل وسرد قصصي جزئي يضفي متعة على الوصف، فيمزج الواصف بين وصف المكان وذكر ما كان يجري فيه من الأحداث في أيام عمرانه.

ففي مدرسة السلطان حسن وجامعه قد يتخيل الواصف العمال وهم يبنونه، ومجالس الدرس وحلقات الذكر، ويتخيل المماليك وهم يصعدون عليه ويضربون بالمدافع القلعة، ويتخيل المكان وهو نابض بالحركة وعامر بالعاكفين والزاهدين واليتامى والمتصوفة والفقهاء والعلماء والمريدين والشيوخ...ومن نماذج ذلك المنظور:

- "ويبدو أن المعماريّ هنا كان مضطرًا للبناء فوق أرض غير مستوية، غير أنه تغلَّب في براعة فائقة على ما صادفه من عدم انتظام السطح" (وصف مصر، ١٨٥/١٠)
- "بعد تمام البناء ملؤوا الفسقية التي في الصحن سكرًا بماء الليمون وأباحوا للعامة الشرب منها ثم فُرِّق الذهب على العَمَلة" (هرتس، ١٤-١٥)
- "رتب [الواقف] خازنًا للمكتبة، ورجلين لخدمة المزملة (المزيرة) وحفظ أوانيها وتنظيفها وملء الكيزان وسقي من يرد إليها" (ماهر، ٢٨٩)

(ج) المنظور التخيُّلي التكويني

لا يكتفي الواصف هنا بوصف الشيء على حالته كما هو، بل يعيد بقوة خياله ترتيب مفردات الواقع وتجميعها في صورة جديدة؛ لإبراز معنى من المعاني. ومن الشواهد التي نتعلم منها هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان ٢٧]؛ فالآية الكريمة تعبّر عن معنى أن كلمات الله عز وجلّ لا حدَّ ولا نهاية لها بهذا الأسلوب البالغ التأثير؛ بما فيه من تخييل وتصوير. ومن أمثلة ذلك أن يقال مثلًا: (لو مُدَّ الشريط الوراثي الذي في جسم الإنسان في

خط مستقيم لوصل طوله إلى ملايين الكيلومترات أو لدار حول الكرة الأرضية كذا دورة). ومن نماذجه في مصادر البحث تعبير هرتس عن كثرة جوامع القاهرة كنائيًّا بقوله:

- "لو جُمعت [جوامع القاهرة] كلها لكفت لتكوين مدينة قائمة بذاتها" (هرتس، المقدمة)

هذه "المدينة القائمة بذاتها" ليست جزءًا من الموصوف ولا موضع لها على خريطة الواقع، بل هي من إبداع خيال هرتس.

ولهذا المنظور دَوْر آخر في الانتقاد الفني للعمارة، إذ يتخيَّل الواصف أن المبنى لو كان على صورة أو هيئة أخرى لكان أحسن أو أنفع. ومن نماذج هذا:

- "وكان يمكن أن يكون [باب الجامع] أحسن تأثيرًا لو أنه كان هناك في هذا الجانب ميدان على نحو ما في ناحية القلعة" (وصف مصر، ١٨٦/١٠)
- "والمرجَّح أنه لم يتمم بناء القبلة، كما كان مقرَّرًا لها، ببناء عظيم يتناسب مع الجدران الضخمة التي أُعدَّت لحملها" (عبد الوهاب، ١٦٩)

ويندرج في هذا المنظور ما يُسمَّى في البلاغة العربية بـ"التشبيه الخيالي"، وهو صورة يركِّبها خيال الواصف؛ وليس لها وجود في الواقع، وإنْ كانت كل مفرداتها منه. ومن نماذجه:

- "تُشبه العمارة الأثرية كتابًا ضخمًا صفحاته من الحجارة المنقوش عليها تاريخ البلد" (هرتس، ٤)

فهذا الكتاب أيضًا من إبداع الواصف، وليس له وجود في الواقع.

ويرى البحث أن تنويع المنظور اللغوي في الوصف له دور مهم في تحسين الوصف وجعله بليغًا مؤديًا لوظيفته دون إملال ومؤثرًا تأثيرًا جماليًّا في المتلقي. ويُعَدُّ هرتس، من بين عينة البحث، أكثر من حققوا الوصف الموضوعي الاستقصائي الدقيق مع التنويع في المنظور اللغوي والأساليب الحقيقية والمجازية. ومن نماذج ذلك تعبيره عن معنى كثرة جوامع القاهرة في مقدمة كتابه "جامع السلطان حسن"، فقد عبَّر عن هذا المعنى نفسه بأربع طرق، بالتعبير الصريح الحقيقي:

- جوامع القاهرة "أكثرها في أنحاء الشرق عمومًا"، "مدينة القاهرة كثيرة الآثار"

بالتعبير المجازي:

- "لا مشاحة في أن مدينة القاهرة هي أم الجوامع"

بمنظور السائح:

- "فإن الإنسان يكاد لا يخطو خطوة دون أن يرى جامعًا أو مسجدًا"

وهذا تعبير غير مباشر بالكناية عن كثرة الجوامع.

بالمنظور التخيلي التكويني:

- "لو جُمعت [جوامع القاهرة] كلها لكفت لتكوين مدينة قائمة بذاتها"

وهذا أيضًا تعبير كنائي عن كثرة الجوامع.

يُلخِّص الشكل (١) التالي التقسيمات المقترحة لوصف العمارة الأثرية.

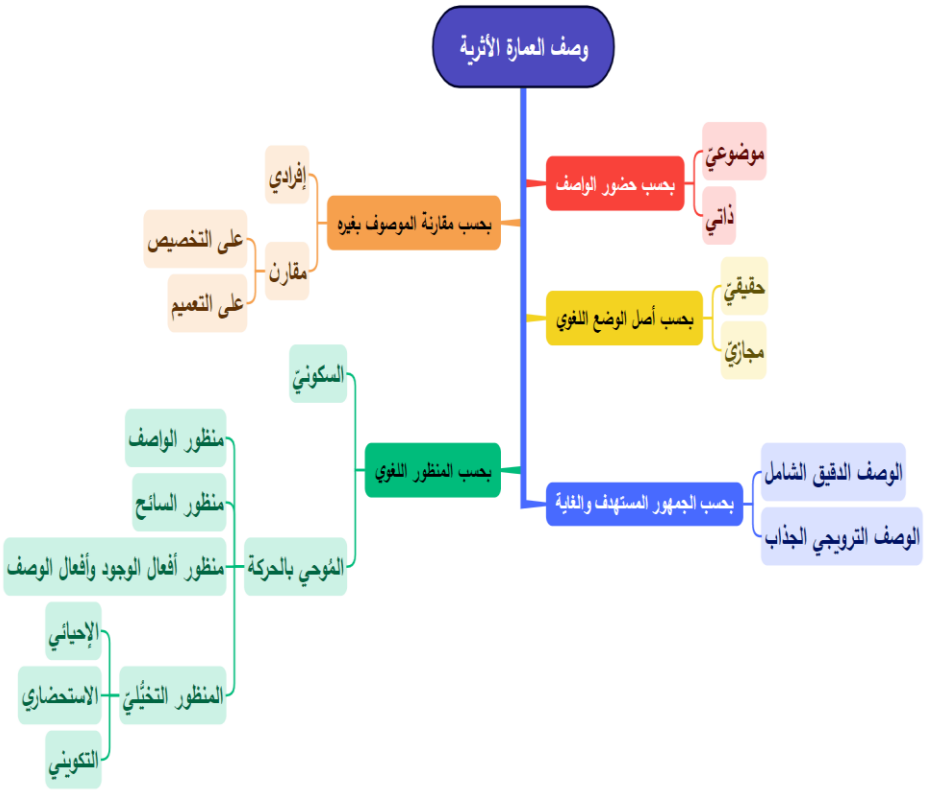

٢-المبحث الثاني: عناصر وصف العمارة الأثرية

يحاول البحث في هذا القِسم استخلاص عناصر وصف العمارة بالاستقراء من المصادر التي وصفت مدرسة السلطان حسن وجامعه وبالاستنباط والملاحظة المباشرة من زيارة الباحث للمبنى. يمكن تحويل العناصر التالية إلى نموذج إرشادي أو قائمة مراجعة وفحص. يمكن القول من أهم عناصر وصف العمارة ما يلي:

١- نوع المبنى واسمه

المبنى من العمارة الدينية كالجوامع، أو من العمارة الحربية كالقلاع، أو من العمارة المدنية كالحمامات والدُور، مثلًا: قلعة الجبل، مدرسة السلطان حسن.

٢- الموقع

أ- الموقع الجغرافي العام على الخريطة، وفي البلد فالمحافظة فالحيّ.

ب- والموقع النسبي، بالنسبة إلى ما حول المبنى من مبانٍ ومعالم طبيعية.

٣- الطراز المعماري

ومن الطُرُز المعمارية الطراز المصريّ القديم والقبطي والإسلامي. ويتنوع الطراز المعماري الإسلامي نفسه حسب عصوره، فمثلا يختلف طراز المآذن العثمانية عن طراز المآذن المملوكية. وقد تكون بعض أجزاء المبنى من طُرز مختلفة. ومسجد السلطان حسن –كما يراه هرتس في مقدمة كتابه– "في شكل المعابد القديمة ...ومن جنس ما شُيِّد في عصره من كنائس القرون الوسطى". ففيه من الطرز الثلاثة.

٤- الوصف المعماري

يشمل شكل المبنى {مربع، مستطيل، دائري...}، وأبعاده {الطول والعرض والارتفاع أو العمق} ومساحته ومكونات الهيكل {الأعمدة والعتبات والأكتاف والعقود والأسقف والقباب والطوابق والغرف والأروقة والممرات والدهاليز والنوافذ والأبواب والأسوار والجدران وواجهات المبنى...} ولكل مكوّن من مكونات الهيكل هذه شكله وأبعاده ومكوناته الخاصة. ويمكن أن يُلحَق بها المواد الخام لمكونات الهيكل {من خشب أو حجر أو آجر أو حديد أو نحاس أو

زجاج أو ذهب ...} وأنواعها وخصائصها وطريقة تثبيت المكونات وتجميعها. ويشمل الوصف العلاقات المكانية بين مكونات الهيكل {التقارب والتباعد والتجاور والتقابل والتوازي...}. ولا يُغفل الواصف هنا ذِكر أجزاء المبنى الفريدة المميزة له كبوابة مدرسة السلطان حسن وقبة جامعه.

٥- **مرافق المبنى ومحتوياته** ومقتنياته وملحقاته، فمثلًا، من مرافق مدرسة السلطان حسن الفسقية والبيمارستان، ومن مقتنياتها التنانير، أي القناديل، والمشكاوات، ومن ملحقاتها (المَغسِل، والميضأة، والساقية). ويحسن هنا أن يشير الواصف إلى غرض الباني، على سبيل المثال، وجود دركاه لعزل صحن المسجد عن صخب الشارع، أو عمل الميضأة خارج المسجد احترازا من النجاسات والماء.

ومن نماذج ذلك:

- "وتُركت الجهة الوسطى من هذا المكان مكشوفة لتجدد الهواء ودخول الضوء" (هرتس، ٢)

٦- الحلَى والزخارف

وتشمل كل ما يُزيَّن به البناء من الحِلَى والألوان والطلاء والنقوش والكتابات (التوثيقية والزخرفية) والزخارف بأنواعها (النباتية والحيوانية والهندسية) والخطوط بأنواعها (كالكوفي والثلث) (والرسوم والصور إن وُجدت)، ويدخل في ذلك طرق تنفيذها (كالحفر أو النحت أو الصب في قوالب...)

٧- التناسق

ويدخل في الوصف أيضًا الحديث عما بين عناصر المبنى وزخارفه من التوازن والتماثل والتناسب أو الاختلاف والتباين والتنافر. ويُنظَر هنا أيضًا في التناسب بين الأغراض الجمالية والنفعية، فربما تكون النوافذ مثلًا رائعة الجمال، لكنَّ عددها وأبعادها غير مناسبة لتهوية المكان أو إضاءته.

- "قال إيبرس (إن كل ما نراه في الجامع مركب في مكانه تركيبًا هادئًا منسجمًا، فإذا أمعنت النظر في زخارف إيوان القبلة وقاعة القبر جزءًا جزءًا أحسست الرضا. فهناك ثروة فنية وأشكال رشيقة بارعة" (عبد الوهاب، ١٦٨)
- "والفنان في هذا الجامع لم يوجِّه همَّه إلى الزخرفة كعامل جوهري في العمارة، بل اقتصد فيها وسيطر عليها وأخضعها للكل فأدَّت أغراضها" (عبد الوهاب، ١٦٧-١٦٨)

٨- دلالة العمارة

العمائر صامتةٌ مُبِينةٌ، تُبِين عن خيال مهندسها وبراعته، وتَنُمّ عن مهارة حرفيّيها وفنانيها وعُمَّالها وإتقانهم، وتدلّ على طموح الآمر ببنائها وهِمَّته؛ فالصنعة تدل على الصانع. فالعمائر شواهد حية على حضارة الغابرين، وهذا المعنى قد وقف عنده البحتري مرتين في وصفه لإيوان كسرى (الذي تعمَّد السلطان حسن أن يبني إيوان القبلة أعظم منه)، إذ يقول فيه:

٢١ وَهْوَ يُنْبِيكَ عن عجائب لا يُشاب البيان فيهم بِلَبْس

ويقول:

٤٤ غَيْرَ أَنِّي أراه يَشْهَد أنْ لمْ يَكُ بانِيه في الملوك بِنِكْس[٢٠]

فالأبنية "تُنْبِئ" و"تشهد"، وإيوان كسرى يشهد بأن بانِيه لم يكنْ مَلِكًا ضعيفًا. ومن ذلك قول شوقي في وصفه كنيسة آيا صوفيا التي صارت مسجدًا:

شَيَّدَها الرومُ وَأَقيالُهُمُ عَلى مِثالِ الهَرَمِ المُخلَدِ

تُنبِئُ عَن عِزٍّ وَعَن صَولَةٍ وَعَن هَوًى لِلدينِ لَم يَخْمُد[٢١]

وتكشف الكنيسة عن مهارة الفنيين في تصوير عيسى ومريم عليهما السلام:

جلَّاهما فيها وحلَّاهما مُصوِّر الروم قدير اليد[٢٢]

يتوقف الواصف أيضًا عند ما يوحي به المبنى من اهتمام ثقافي أو ديني أو اجتماعي لأهل عصره. وقد أشار شوقي إلى بعض هذا الاهتمام بقوله: "تنبئ...عن هوى للدين لم يخمد"، وأشار هرتس إلى المعنى نفسه بقوله:

- جامع السلطان حسن "أعظم مساجد القاهرة في الدلالة على العظم وحرمة الشعائر الدينية ... هو من جنس ما شُيِّد في عصره من كنائس القرون الوسطى حيث كان الناس متمسكين بالدين" (هرتس، المقدمة)
- "هذا العمل العظيم ... قد جمع كل عناصر الفخامة والروعة والجمال تجسيدًا لعصر من القوة والمهارة والشموخ" (من مقدمة د. مُحَمَّد صابر لكتاب هرتس)
- "فالبناء شامخ يدل على العظمة والجبروت والمقدرة الفنية، كما ينم عن كثرة النفقات" (عبد الوهاب، ١٦٦)
- جاستون فييت: "ولا ريب في أن هذا البناء العالمي الشهرة والعظيم القيمة رمز لمجد الإسلام وقوته وعظمته مقررة معترف بها" (عبد الوهاب، ١٦٧-١٦٨)

٩- تأثير العمارة

للعمارة تأثير في تصورات الإنسان ومشاعره. فقد تصوَّر الإنسان كثير من المفاهيم غير المادية وعبَّر عنها في لغته باستعارات مكانية، مثل المفاهيم الأخلاقية والاجتماعية للسمو والرفعة والتدني والانحطاط والتقدم والتخلف[٢٣]. وللمكان عامةً، وللعمارة خاصةً، تأثير في نفس الإنسان ومشاعره، فالوقوف أمام واجهات المسجد السامقة بأحجارها الضخمة ومئذنتيها الشامختين يثير في النفس إحساسًا مماثلًا، من الضخامة في الحجم إلى الفخامة في القدر، ومن الارتفاع إلى الرفعة، ومن العِظَم إلى العَظَمة، كما أن المباني المنخفضة الأسقف، الضيقة، السيئة التهوية والإضاءة تقبض النفس وتثير فيها الضيق.

ولذلك ينبغي أن ألا يكتفي الواصف بوصف المكان، بل يضيف إليه وصف تأثير المكان على من فيه، ويستبطن مشاعره وهو يصف المكان، أيشعر بالضيق كأنه في خندق أو نفق أم بالأمان كأنه في قلعة حصينة أم بالاسترخاء كأنه راقد في روضة؟ وأن يكون يَقِظ الحواسّ، ينتبه إلى الأصوات والروائح والملموسات كما ينتبه إلى المرئيات، فمثلا، يدرك وقْع القباقيب على الرخام، خرخرة الماء في الفسقية أو النافورة، نعومة السجاد أو البُسُط تحت الأقدام، الأضواء

المنعكسة على البلاط والزجاج، دنانير الشمس العابرة من النوافذ، نسمات الهواء في الدهاليز والأروقة، ملمس الجدران المصقولة، رائحة الأخشاب العطرية...، ومن نماذج ذلك:

- "وقد وُضِع [في جامع ابن طولون] على الإفريز الذي يحيط به من جميع الجهات معجون العنبر لتفوح رائحته بين الآتين للصلاة به" (وصف مصر، ١٠/١٨٧)

إنَّ وصف تأثير العمارة في نفس الواصف يبث الحياة في الوصف ويخرجه عن سكونه ويمتع المتلقي ويدفع الملل.

- "يؤدي هذا الفراغ من خلال الدهليز المعقود وفي حركة غير مباشرة في رحلة من الظل والنور تستغرق لحظات يقطعها الإنسان في سعي بين الخارج بكل صخبه إلى الداخل بكل سكونه، ليصل بنا هذا الدهليز عبر انحناءة محسوبة إلى الصحن" (والي، ٢٢)

ومن النماذج التي تُذكِّرنا بمزج الوصف النفعي بالوصف الجمالي:

- "هذا الجامع يشكِّل منظرًا رائعًا من الطراز الأول في مقدمة لوحة مثيرة للإعجاب، جديرة بأن تنقلها ريشة فناني الطبيعة الكبار. إن كل من يشاهد هذا المنظر من الفنانين يُشَدُّ إلى جماله وسرعان ما يتناول قلمه ليسجل تأثره الحيّ به" (وصف مصر، ١٠/١٨٤-١٨٦)

١٠- تاريخ المبنى

تصلح كل عناصر الوصف السابقة للعمارة الأثرية والمعاصرة على حدٍّ سواء، وتزيد عليها العمارة الأثرية ببعدها التاريخي وقيمتها الأثرية. وصف العمارة الأثرية كرحلة ثقافية عبر الزمن تنقلنا إلى عصر آخر، يلتحم فيها الوصف بالسرد التاريخي، فيُذكَر تاريخ بدء البناء وانتهائه والآمر به وملابسات بنائه وحالة المبنى الأولى وتأثيرات الحقبة التاريخية التي بُني فيها، والأهمية التاريخية والثقافية للمبنى. تفيد معرفة حالة المبنى الأولى مقارنةً بحالته الراهنة في معرفة ما تهدَّم أو سقط أو تلف أو انمحى، أو فُقِد أو سُرِق من مقتنياته، وما أصابه من تغيير بإصلاح وترميم.

ولا شك أن فهم الأحداث التاريخية المحيطة بهذه العمائر وظروف بنائها وعصرها وأحواله الاجتماعية والمشاكل التي واجهت المهندسين والفنيين وكيفيات تغلبهم عليها يثري فهمنا لحياتهم وحياتنا وينمّي الخبرة البشرية.

٣-المبحث الثالث: عناصر وصف العمارة وأنماط الجملة

ينطبق مصطلح الوصف في النحو العربي على أبواب الخبر والصفة والحال. وقد صرف النحاة العرب اهتمامهم إلى تحديد وظيفة كل عنصر في الجملة، لكن وظيفة الجملة بوصفها وحدة دلالية –ليس معناها مجرد مجموع معاني عناصرها– لم يتطرق إليها النظر إلا قليلا في بعض ملاحظات سيبويه وابن جني ومن تابعهما لوظيفة التعيين، وقد عبروا عن ذلك بقولهم (المبتدأ عين الخبر). وظلت الحاجة قائمة إلى ربط الجمل بالوظائف الدلالية التي تنجزها في الواقع الخارجي، بعيدًا عن الانكفاء على دراسة النحو بوصفه العلم الذي يدرس العلاقة بين الرموز اللغوية بعضها مع بعض. ومع ذلك لا نعدم إشارات دلالية مهمة ترتبط باستعمال اللغة بصرف النظر عن الإعراب. ومن أمثلة ذلك إشارة ابن يعيش إلى أن النعت قد يكون صفة لازمة، مثل طويل، وأسود، أو بفِعلٍ اشتهر به الموصوف علاجيّ مثل قائم وضارب، أو نفسانيّ مثل عاقل وأحمق، (وهذا يذكرنا بتقسيم هاليداي الأفعال إلى مادية (material) ونفسية (mental)، أو يكون الوصف بالحرفة أو بأمرٍ مكتسب كعطَّار وكاتب، أو بنسب لبلد أو أب، مثل بغداديّ[٢٤].

ومن أهم الجوانب الدلالية التي تتصل بالوصف وتناولها النحاة العرب وظائف النعت. فحددوا منها التوضيح (أو الإيضاح) و"المراد به رفع الاشتراك اللفظي في المعارف"، والتخصيص، أي "تقليل الاشتراك المعنوي في النكرات"[٢٥]. وهاتان عندهم أهم وظيفتين. وأضافوا وظائف أخرى منها أن يكون "مَسُوقًا لتخصيص أو تعميم أو تفصيل أو مدح أو ذم أو ترحم أو إبهام أو توكيد" "لتخصيص نحو: (الصلاة الوسطى) و(منه آيات محكمات). والمسوق للتعميم نحو: إن الله يرزق عباده الطائعين والعاصين، ويحشر الناس الأولين والآخرين. والمسوق للتفصيل نحو: مررت برجلين عربي وعجمي. والمسوق للمدح نحو: سبحان الله العظيم. والمسوق للذم نحو: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. والمسوق للترحم نحو: لطف الله بعباده الضعفاء. والمسوق للإبهام نحو: تصدقت بصدقة كثيرة أو قليلة"[٢٦]. وزاد الدماميني وظيفة الشك، قال: "ويمثَّل له بمثال الإبهام إذا لم يعرف المتكلم حقيقة الأمر وكان شاكًّا"[٢٧].

في المقابل نجد المنظور الوظيفي النظامي للجملة العربية يقدم تنميطًا دلاليًّا لها يرتكز على استقراء وظائفها. للجملة نمطان أساسيان هما:

(١) الجملة الفعلية، وهي الجملة التي المسند فيها فِعْل، تقدَّم أو تأخَّر عن المسند إليه، وهي تدل على وقوع حدث (event) أو فِعْل (action) وتتسم بالحَرَكية والتغيُّر لوجود الفعل.

(٢) والجملة الاسمية، وهي الجملة التي المسند فيها غير فِعْل. وهي تدلّ على علاقة بين طرفيها، وتتسم بالثبوت.

وتنقسم الجملة الفعلية إلى نوعين أساسيين: (أ) جملة مادية، فعلها يقع في خارج النفس، (ب) وجملة نفسية فعلها يقع في النفس، مثل أفعال الظن واليقين. وتنقسم الجملة الاسمية إلى أربعة أنواع أساسية: (أ) التعيينية، ووظيفتها تعيين الخبر (أو المبتدأ أحيانًا)، وتكون جوابًا لسؤال بـ"مَنْ" أو "ما". (ب) الوصفية، وهي تصف الخبر دون تعيينه[٢٨]، وتجيب عن السؤال: "كيف هو؟" وكم؟ وما؟ وأي؟[٢٩] (ج) الوجودية، وهي تدل على وجود ذات في مكان، وتجيب عن السؤال: "أين هو؟" (د) الاختصاصية، وهي تدل على معاني الملك والاختصاص والاستحقاق، مثل لي سيارة. ولي أخ. والنجاح للمجدّين. وحرف الجر الأساسي فيها هو اللام[٣٠].

يمتاز هذا التقسيم الوظيفي بأنه يربط التركيب النحوي بوظائف اللغة ربطًا مباشرًا. وفي ضوء هذا، يتوقع المرء عند وصف العمارة بوجه عامّ، الأثرية أو غير الأثرية، أن يسود نمط الجملة الوصفي والوجودي. ويتوقع أيضًا أن يغيب النمط الفعلي المادي، فنحن نصف مبنى ثابتًا، وليس ثمة فِعل ولا حدث. فيما يلي عناصر الوصف وأنماط الجملة المناظرة لها ونماذج من مصادر البحث لكل حالة.

١-اسم المبنى

تكون الإشارة إلى اسم المبنى عادةً بالجملة الفعلية التي فعلها مبني للمجهول أو باسم المفعول منه، مثل: يُعرَف بـ، يُسمَّى بـ، يُطلَق عليه اسم، المعروف، المُسمَّى، ...

- "هذا الجامع يُعرَف بمدرسة السلطان حسن" (المقريزي، ١٢١/٤)
- "باب القلعة المعروف بباب السلسلة" (المقريزي، ١٢٣/٤)

- "الميدان الذي يُطلَق عليه الرميلة" (وصف مصر، ١٠/١٨٤)
- "الجامع المُسمَّى باسم مؤسِّسه ... والمدرسة المشهورة باسم مدرسة السلطان حسن" (وصف مصر، ١٠/١٨٥)

٢-الموقع

والمقصود به (أ) تحديد الموقع العام للمبنى: الدولة فالمحافظة فالمنطقة أو الحي فالشارع، (ب) وتحديد الموقع النسبي له: بالنسبة لما يحيط بالمبنى من معالم من جهاته (ج) تحديد موقع مكونات الهيكل بعضها بالنسبة إلى بعض.

عند تحديد موقع المبنى، من المتوقع أن يسود نمط الجملة الوجودية. وهو على الصورة التركيبية التالية: اسم ذات + شبه جملة جريّة أو شبه جملة ظرفية.

اسم ذات، مثل الجامع، المسجد، المنبر، الميضأة، ... إلخ. شبه جملة جريّة، وهي تتكون من حرف جر (في، على، الباء، ...) واسم مجرور. شبه جملة ظرفية، وهي تتكون من ظرف مكان (بين، تجاه، عند، أمام، يمين، غرب، ناحية، قُرب، بعد، قبل، ...) ومضاف إليه. من نماذج تحديد الموقع:

- "وهو تجاه قلعة الجبل فيما بين القلعة وبركة الفيل" (المقريزي، ٤/١٢١)
- "هذا الجامع ...غربيَّ قلعة الجبل" (هرتس، ١)

هنا يحسن التمييز بين الأفعال الحقيقية التي هي أفعال في عالم النحو وأفعال في الواقع الخارجي، مثل بَنَى، وهدم، والتي يكون السؤال عنها بقولنا: "ماذا حَدَث؟" و"ماذا فَعَل فلان؟" – والأفعال الوجودية التي هي أفعال في عالم النحو، لكنها ليست أفعالًا في الواقع الخارجي، مثل: (يتوسط الجامعَ صحنٌ.). فالجملة هنا لا تصلح جوابًا عن السؤال ماذا حدث أو يحدث؟ ومعنى الفعل "يتوسط" هنا هو "يكون في الوسط"، والجملة تكافئ: (وَسْطَ الجامعِ صحنٌ.). فالفعل هنا يُعبِّر عن حالة وجودية سكونية، ويُوهم بحكم طبيعته بالحركة والتغيُّر.

ومن ثَمّ قد توجد بعض الأفعال في الجملة الوجودية، لكنها لا تُعبِّر حقيقةً عن حَدَث أو فِعْل، ولا تأتي عادةً إلا على صيغة المضارع. يعرض الجدول (١) الجملة الوجودية وبدائلها الفعلية

جدول ١ الجملة الوجودية وبدائلها الفعلية

العلاقة	الجملة الوجودية (بلا فِعْل)	البديل باستعمال الفعل النحوي
الوجود المطلق	الجامع في ميدان الرميلة.	يوجد/يقع الجامع في ميدان الرميلة.
الاحتواء	فيه أربعة إيوانات.	يحتوي على/ يحوي/ يضم/ يشمل/ يشتمل على أربعة إيوانات.
الإحاطة	حوله حديقة.	يحيط به/ يحدق به/ يطوقه حديقة.
المواجهة	أمامه القلعة.	تواجهه/ تقابله القلعة. يُطِلّ/ يُشرِف على القلعة.
العلو	على الأعمدةِ قبةٌ.	تعلو الأعمدةَ قبةٌ.
المجاورة	على جانبي المنبر بابان.	يكتنف المنبر بابان.
التوسط	في وَسَط الجامع صحنٌ. وَسْطَ الجامع صحنٌ.	يتوسط الجامع صحنٌ.

من نماذج الوجود المطلق:

- "يقع بجوار كل إيوان من الأواوين الأربعة المدارس المذهبية الأربع" (ماهر، ٢٨٤)

لاحظْ أن حذف الفِعْل "يقع" لا يؤثر على معنى الجملة؛ لأنه في الحقيقة حشو.

من نماذج علاقة العلو:

- "القباب التي تعلو –كما هو معروف– قبور مشيّدها" (وصف مصر، ١٠/ ١٨٥)
- "فوق جانبي هذا الجزء البارز منارتان" (هرتس، ١). لاحظْ إمكان وضع "تعلو" مكانَ "فوق".

ومن نماذج علاقة الاحتواء والتوسط:

- الواجهة الجنوبية ... تحتوي على نوافذ المدرسة الحنفية، ...أما الواجهة الشرقية التي تحوي القبلة فيبلغ طولها ٦٨ مترًا" (ماهر، ٢٨٣).

لو وُضِع مكان الفعلين "تحتوي على" و"تحوي" شبه الجملة: "فيها"، ما تغيَّر المعنى.

- "تصميم المدرسة– وقد وُضِع على طريقة التعامد (cruciforme) التي تشتمل على أربعة إيوانات يتوسطها صحن مكشوف" (عبد الوهاب، ١٦٨)

من نماذج علاقة المجاورة:

- "ويجاور المحراب منبر من الرخام له باب من النحاس المفرّغ، ويكتنف المحراب بابان يوصلان إلى القبة ... وعلى جانبي المحراب لوحتان" (عبد الوهاب، ١٧٢)

من نماذج الإحاطة والتوسط:

- "حول الصحن أربعة إيوانات، أكبرها إيوان القبلة" (عبد الوهاب، ١٧٢)
- "يحيط بالصحن من جهاته الأربع إيوانات المدرسة" (ماهر، ٢٨٤)
- "ويحيط بالصحن أربع مدارس للمذاهب الأربعة تعتبر من تصميمها مساجد صغيرة محدقة بالجامع الكبير... ويتكوَّن كل منها من إيوان وصحن يتوسطه فسقية" (عبد الوهاب، ١٧٣)

وقد يحلّ الاسم المشتق محلَّ الفعل، مثل:

- "ووجهته الأصلية مُطلَّة على شارع مُحَمَّد علي، وله وجهة أخرى مُشرِفة على ميدان الرميلة... أمَّا الوجهة الشمالية الغربية فمُجاوِرة لرَحبة فيها بناء ساقية جسيمة... الوجهة الأصلية وبوابتها الكبيرة مُتَّجِهة إلى الشمال الشرقي" (هرتس، ١)
- "في وسط الصحن فسقية، معقودة عليها قبة، محمولة على ثمانية أعمدة من الرخام" (هرتس، ٢)

٣-الوصف المعماري

نمط الجملة السائد هنا هو نمط الجملة الوصفية. وهو على الصورة: اسم الذات+ وصف. والوصف قد يكون شكلًا (مثل: مستطيل)، أو لونًا (مثل: أبيض)، أو مقدارًا (مثل: أربعين مترًا) أو للأبعاد والحجم، (مثل: طويل، عالٍ، ضخم، واسع، ...إلخ)، أو زمنًا (مثل: قديم، عتيق، حديث) أو اسم مفعول دالًّا على عملية من عمليات البناء والتزيين (مُحلًّى، مُرصَّع، مُطعَّم، مُصفَّح، مُكفَّت[٣١]، مُغطًّى، مُغشًّى، ...) أو اسمًا منسوبًا يُبيِّن البلد أو الطراز أو المادة

الخام أو العصر (مثل: مصريّ، قبطيّ، نحاسيّ، مملوكيّ) ... أو وصفًا ذاتيًّا (مثل: جميل، عجيب). ومن نماذج ذلك:

- "ذراع إيوانه الكبير خمسة وستون ذراعًا في مثلها". (المقريزي، ١٢٢/٤)
- "طوله الإجمالي عند محوره الرئيسي حوالي مئة وخمسون مترًا، وأن ارتفاع مئذنته الكبرى هو ثمانون مترًا" (وصف مصر، ١٨٦/١٠)

والأصل في نمط الجملة الوصفية أنه خالٍ من الفعل النحوي، لكن كثيرًا ما يقترن بأفعال مثل: يصل إلى، يبلغ، أو أفعال المشابهة مثل: يشبه، يشابه، يماثل، يضاهي، يضارع، يحاكي... وقد يحلّ محلها جميعا: "مِثْل". ومن نماذج ذلك:

- المنارة "يبلغ علُوُّها عن صحن الجامع ٨١ مترًا و٦٠ سنتيًا" (هرتس، ١)
- "مدرسة الحنفية وتبلغ مساحتها ٨٩٨ مترًا" (هرتس، ٢)

يُلاحَظ أنَّ حَذْف الفعل "يبلغ" في الجملتين السابقتين لا يُخلّ بمعنى الجملة ولا بصحتها النحوية.

- "تحاكي النقوش أشكال الزهور والحلى الحلزونية" (وصف مصر، ١٨٤/١٠)

وأحيانًا يُحوِّل الواصفُ الجملَ التي من النمط الوصفي إلى مركبات اسميّة إضافية، وبهذا تصبح جاهزة لكي تصبح جزءًا من جملة أخرى. وهذا الإجراء يُعَدّ في النحو الوظيفي "استعارة نحوية" تصنع جملًا مُركبة وتكثيفًا دلاليًّا.

الجملة (من النمط الوصفي)	المركب الإضافي
مئذنتاه مرتفعتان. مساحته عظيمة.	ارتفاع مئذنتيه، عِظَم مساحته
الرخام وفير. العمارة رائعة.	وفرة الرخام، روعة العمارة
المآذن شامخة. البناء قويّ.	شموخ المآذن، قوة البناء

- "إنه يستحق أحد المراكز الأولى بين منجزات العمارة العربية، وذلك بفضل قُبَّته الفريدة وارتفاع مئذنتيه وعِظَم مساحته وكذلك بوفرة الرخام والزخارف" (وصف مصر، ١٨٤/١٠)

وكثيرا ما تُجمع هذه المركبات الإضافية بالفعل "جمع"، كما في النموذجين التاليين:

- وقد يكون هذا الجامع هو الوحيد بين جوامع القاهرة الذي يجمع بين قوة البناء وعظمته ورقة الزخرفة وجمالها" (عبد الوهاب، ١٦٧-١٦٨)
- "فهو في مقدمة المساجد الجامعة التي جمعت بين روعة العمارة وشموخ المآذن ... لعل هذا المسجد قد تفرَّد من بين مساجد القاهرة بقوة البناء وعظمة وجمال الزخرفة ورقتها وتناغم عناصرها الجمالية" (من مقدمة د. مُحَمَّد صابر لكتاب هرتس)

عند الحديث عن أجزاء المبنى أو ما ينزل منه منزلة الجزء أو صفاته المعنوية، يكون لدينا بدائل تركيبية. فلو كان الجزء هو مثلًا (آثار) والكل هو (القاهرة)، فالبدائل (أ) الابتداء بالجزء (مثل: آثار القاهرة كثيرة.) (ب) الابتداء بالكل فالجزء، مبتدأ بعد مبتدأ، (مثل: القاهرةُ آثارُها كثيرة.)، (ج) الخبر السببي (مثل: القاهرة كثيرةٌ آثارُها) أو إضافة الوصف إلى الموصوف (مثل: القاهرة كثيرةُ الآثارِ) (د) الخبر المُبيَّن بتمييز بعده (مثل: القاهرة كثيرة آثارًا). من نماذج الخبر السببي:

- "هذه الوجهة مزخرف ظاهرها بزخرفة كثيرة" (هرتس، ١)

من نماذج النعت السببي:

- "خصوصًا الدكة فإن في زواياها عُمُدًا رفيعة مختلف ألوانها رقيق صنعها" (هرتس، ٢)

ومن نماذج إضافة الوصف إلى الموصوف:

- "هذا الجامع متقن البناء عظيم الارتفاع" (هرتس، ١٥)

٤-مواد البناء

هنا يبين الواصف جنس المواد الخام التي استُعمِلت في البناء، وعادة يستعمل النمط الوصفي، فيقال مثلا: الباب خشبٌ أو مِن خشبٍ أو من الأخشاب أو خشبيّ.

- "وجدران الصحن والإيوانات من الحجارة المخمشة المكسوَّة بطبقة من البياض" (هرتس، ٢)

وقد يأتي الخبر على صورة (المشتق + مِن+ المادة الخام) مثل مصنوع من النحاس، منحوت من الرخام.

- "كل من المنبر والدكة متخذ من المرمر" (هرتس، ٢)

٥-مرافق المبنى وأجزاؤه ومحتوياته وملحقاته

يمكن التعبير عن أجزاء الشيء بوجه عام بأربع طرق أساسية:

(أ) الإضافة النحوية، مثل: واجهة المبنى، صحن الجامع.

(ب) النمط الوجودي، مثل: في الجامع قبةٌ. في القبة نوافذ. في النوافذ زجاج ملوَّن.

(ج) النمط الاختصاصي (حرف الجر اللام)، مثل: للجامع قبةٌ. للقبة نوافذ. للنوافذ زجاج ملون.

(د) النمط الوصفي مع حرف الجر "مِن"، مثل: من ملحقات الجامع المغسل والسبيل. من مقتنيات المتحف قناع توت عنخ آمون، ومنها....، ومنها....

من نماذج عينة البحث:

- "وفي هذا الجامع عجائب من البنيان. منها ... القبة العظيمة...، ومنها المنبر الرخام ...، ومنها البوّابة العظيمة، ومنها المدارس الأربع" (المقريزي، ١٢٢/٤)

٦-أعمال الطلاء والنقش والزخرفة ونحوها:

وهي أفعال حقيقية نفَّذها الحرفيون، ويمكن التعبير عنها بطرائق مختلفة:

أ- التصريح بالصانع: المعماريّ أو المُصوِّر (أفعال مادية واقعية):

- "تغلب [المعماريّ] في براعة فائقة على ما صادفه من عدم انتظام السطح"

"ابتكر المصوِّر الشرقيّ ... زخارف دقيقة من كتابات ودلايات ونقوش وفسيفساء وقطع مُطعَّمة ومُكفَّتة ومُموَّهة مما جعله [أي الجامع] آية في الحسن والبهاء" (هرتس، المقدمة)

- "هذه الوجهة مزخرف ظاهرها بزخرفة كثيرة أبدع المهندس في توزيعها" (هرتس، ١)

ب- بناء الفعل للمجهول: "شُغِل الخشب والبرنز بمهارة على الأبواب والأطر المعدنية...رُسِمت [زخارف الكتابة] مكبَّرة بجميع الألوان" (وصف مصر، ١٨٤/١٠)

ت- استعمال اسم المفعول: "المصابيح المُعلَّقة في سقوف القباب" "المصابيح الزجاجية المدهونة بالمينا المموَّهة بالذهب" (هرتس، ١٩)

ث- استعمال المصدر والنمط الوجودي دون تصريح بالفاعل، كأن يقال: (فيها كتابات. عليها نقوش. بينها زخارف.).

٧-تاريخ المبنى

نمط الجملة السائد هنا هو الجملة الفعلية المادية التي تدل على وقوع فعل أو حدث خارج النفس البشرية، يُعبَّر عنه بجمل فعلية تُعبِّر عن حركة وبأفعال نحوية حقيقية. وهذا طبيعي ومتوقَّع؛ لأن الوصف هنا يصبح سردًا تاريخيًّا للأحداث. ومن نماذج ذلك:

"ابتدأ السلطان عمارته في سنة سبع وخمسين وسبعمائة، ... أقامت العمارة فيه مدّة ثلاث سنين لا تبطل يومًا واحدا، وأُرصد لمصروفها في كل يوم عشرون ألف درهم، اتفق قَتْلُ السلطان ... قبلَ أن يتم رخام هذا الجامع، فأتمه من بعده الطواشي بشير الجمدار، وكان قد جعل السلطان على هذا الجامع أوقافا عظيمة جدّا" (المقريزي، ٤/١٢١-١٢٢)

ومن المهم الإشارة إلى الأحداث التي كان لها أثر في العمارة بناءً أو تهديمًا أو ترميمًا:

- " أمر [الملك الظاهر برقوق] فهُدِّمت الدرج التي كان يُصْعَد منها إلى المنارتين ... وهُدِّمت البسطة العظيمة والدرج ... حتى لا يمكن الصعود إلى الجامع، وسُدّ من وراء الباب النحاس ... وفُتِح شباك من شبابيك أحد مدارس هذا الجامع ليتوصل منه إلى داخل الجامع... أُعيد بناء الدرج والبسطة، وزُكِّب باب بدل الباب الذي أخذه المؤيد" (المقريزي، ٤/١٢٢-١٢٣)

٤-المبحث الرابع: ما يقع من حشوٍ في الوصف

تنفر البلاغة العربية من فضول الكلام والتطويل بغير فائدة، وتستحسن الإيجاز غير المُخِلّ الموافِق لموضعه، بل يروقها أن يُعبَّر عن بعض المعاني بالاستدلال، يقول ابن عاشور: "مَبْنَى كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى أَسَاسِ الْفِطْنَةِ. وَمَسْلَكُهُ هُوَ مَسْلَكُ اللَّمْحَةِ الدَّالَّةِ"[٣٢]. وتلك هي الحالة العامة، أما في الحالة الخاصة لوصف العمارة، فيكون الواصف أشدَّ احتياجًا إلى التخلص من الحشو والتطويل؛ لأنه إمَّا يبتغي الاستقصاء ويخشى الإملال، كما في الوصف الموضوعي، وإمَّا

يسعى إلى الوصف الترويجي الجذاب في حيز نصيّ ضيّق، كما في كتيبات الإرشاد، أو بطاقات ومطويات الترويج السياحي.

في هذا القسم يتناول البحث بعض ما وقع من حشو في وصف مصادر البحث لمدرسة السلطان حسن وجامعه. ويُبيّن المقصود بالحشو وأنماطه الشائعة وبعض أسبابها.

يُعرَّف الحشو في البلاغة بأنه "الزيادة لا لفائدة بحيث يكون الزائد مُتعيّنًا". ويُمثِّل له البلاغيون بقول زُهير بن أبي سُلمى:

وأعلم عِلْمَ اليوم والأمس قَبْلَه ولكنني عن عِلْم ما في غدٍ

فقوله "قبله" زيادة لا فائدة فيها؛ فمعلوم أن الأمس قبل اليوم، ولو حُذِف "قبله" ما فقدنا شيئًا. فالحشو هنا فيه تكرار لمعنى مفهوم ضمنيًّا من كلمة سابقة، وهذا يشبه قولهم: (أشعر بصداع في رأسي، ولكمته بقبضتي)، إذ تكون شبه الجملة فيهما حشوًا؛ لأن الصداع ألم في الرأس، واللكم الضرب بالقبضة، فكأنهم قالوا: (أشعر بألم في رأسي في رأسي، وضربته بقبضتي بقبضتي). ويُغتفر هذا النوع من الحشو إنْ قُصِد به التأكيد، كقولهم (رأيته بعيني، وسمعته بأذني هذه).

يورد البحث فيما يلي نماذج من الحشو واضعًا خطًّا تحت الكلمة التي هي حشو يَحسُن حذفه:

١- من أشهر أنماط الحشو في العربية المعاصرة ذِكر الفعل الدالّ على الوجود (يوجد، يقع، يكون) أو الوصف منه (موجود، واقع، كائن). وهو نمط غزا العربية وشاع فيها منذ زمن نتيجة الترجمة عن بعض لغات الأسرة الهندوأوربية التي تستعمل فعل كينونة في الجمل الاسمية التي لا تدلّ حقيقةً على حدثٍ ولا فِعْل. ومن نماذجه:

- "هذا الجامع واقع في الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة القاهرة" (هرتس، ١)
- الجامع "قائم في مكان قصر بناه والد السلطان لأحد أمرائه" (هرتس، ١٤)
- "تقع هذه المدرسة في نهاية شارع القلعة" (ماهر، ٢٨٢)

٢- ومن أنماط الحشو الناتجة عن الترجمة الحرفية أيضًا قولهم: (ضخم الحجم، مستطيلة الشكل، زرقاء اللون ...) بدلًا من الاكتفاء بالقول: (ضخم، مستطيلة، زرقاء) ولعل ذلك سببه تعبيرات إنجليزية مثل: (in size, in shape, in color)، ومن نماذجه:

- "وهي حجرة مربعة الشكل طول كل ضلع من أضلاعها ٢١ مترًا" (هرتس، ٢)

ويلاحظ القارئ نمطًا آخر من الحشو في قوله "كل ضلع من أضلاعها"، فمن الحقائق الهندسية أن أضلاع المربع متساوية، وكان يكفيه أن يقول: "ضلعه". الطريف هنا أن هذه الجملة وردت في أحد المصادر اللاحقة التي اقتبست عن ترجمة كتاب هرتس دون حشو: "وهي مربعة طول ضلعها ٢١ مترًا" (والي، ٢٢)

- القبة "محاطة من الخارج بدعامات أسطوانية الشكل" (عبد الوهاب، ١٧٣)

الإحاطة لا تكون إلا من الخارج ومن جميع الجهات؛ لهذا من الحشو أيضا:

- "وقد وُضِع على الإفريز الذي يحيط به من جميع الجهات معجون العنبر" (وصف مصر، ١٨٧/١٠). ولو قيل "الذي حوله" مكانَ "الذي يحيط به من جميع الجهات"، لكفى.

٣- من أنماط الحشو أيضًا قولهم: "هو واحد من...، وهي واحدة من...، ومن أحد أهم..." والراجح أن هذا سببه الترجمة الحرفية (one of ...) أو شاع بسببها، ومن نماذجه:

- "وهو واحد من أجمل عمائر القاهرة والإمبراطورية بكاملها" (وصف مصر، ١٨٤/١٠)

٤- ومن ذلك قولهم: "هو عبارة عن كذا":

- "وجهة القبلة... في وسطها بروز مربع الشكل، معقودة عليه قُبة، وهو عبارة عن التربة" (هرتس، ١)

خاتمة

سعى هذا البحث إلى اختبار فرضية وجود علاقة بين عناصر وصف العمارة الأثرية والأنماط النحوية لجمل الوصف، وإلى الكشف عن دور البلاغة في الوصف وما يُخِلّ بها؛ إذ كانت المشكلة أن المهتم بوصف العمارة لا يجد في الدراسات السابقة تحديدا إرشاديًّا لعناصر وصف العمارة مقترنةً بطرق الوصف وجوانبه النحوية، وكذلك لا يجد دراسات تبيِّن دور البلاغة في

وصف العمارة. ومن ثَمّ كان البحث يهدف إلى استخلاص عناصر وصف العمارة من عينة البحث، وهي ستة مصادر تمتد زمنيًّا من عصر المقريزي إلى عصرنا تصف مدرسة السلطان حسن وجامعه اللذين اختارهما البحثُ نموذجًا لدراسة الوصف اللغوي للعمارة الأثرية. وكذلك كان يهدف إلى تقسيم الوصف تقسيمات إضافية للكشف عن طبيعته وأساليبه؛ لأن التقسيم الشائع إلى وصف موضوعي ووصف ذاتي لا يكفي ليُفسِّر كيف تتعدد إمكانات وصف العمائر نفسها حين يكون الوصف موضوعيًّا؟ وكيف يكون الوصف الموضوعي للعمارة دقيقًا وشاملًا دون إملال؟ وكيف يكون الوصف الذاتي لها ترويجيًّا وجذابًا دون شطط أو كذب؟ وقد اتبع البحث المنهج الوصفي مُركِّزًا على المستويين النحوي والدلالي في إطار النظرية الوظيفية النظامية.

وكانت أهم نتائج البحث هي صحة الفرضية التي انطلق منها، فقد كشف عن ارتباط – يكاد يصل إلى التلازم أحيانا– بين بعض عناصر وصف العمارة وأنماط نحوية معينة للجملة، وأن للبلاغة دورًا ضروريًّا في تحسين الوصف وحل بعض إشكالاته.

ومن النتائج المهمة أيضًا أن تقسيم الوصف إلى موضوعي وذاتي هو تقسيم نظري، ربما يصدُق على جملة أو عبارة، لكنه لا يصدق على الوصف كاملًا في أي مصدر من عينة البحث، والرؤية الحديّة لطرفي التقسيم نقيضين ليست دقيقة، وقد برهن البحث على أن الوصف الموضوعي لمدرسة السلطان حسن وجامعه يتنوع تركيبيًّا وأسلوبيًّا، فلا موضوعية مطلقة ينتج عنها أن تصف كلُّ المصادر المدرسةَ والجامعَ (وهما مركَّبان) وصفًا متطابقًا، فضلًا عن أن الذاتية أو حضور الواصف أو الانتقاء كلها ذات درجات. وكذلك كشف البحث عن أن جميع مصادره التي وصفت مدرسة السلطان حسن وجامعه قد مزجت الوصف الموضوعي بالوصف الذاتي بدرجات متفاوتة أعطت كل وصف طابعًا مختلفًا.

وقد حدَّد البحثُ بعضَ الإشكالات التي تواجه الواصف للعمارة، وكشف عن دور "بلاغة وصف العمارة" في حلّها وتحسين الوصف. ومن هذه الإشكالات: ما يصاحب الاستقصاء في الوصف الموضوعي من إملال، ومنها ما يقترن بالاقتصار على الوصف الذاتي من إبهام

الموصوف (كما ناقش البحث في وصف المقريزي للقبة والمنبر والبوابة)، ومنها الحاجة إلى بث الحيوية في وصف العمارة والتغلب على جمود المكان وسكونه بالاستعانة بتقنيات سردية (مثل منظور الواصف، ومنظور السائح، والمنظور التخيُّلي الاستحضاري) وبالاستعانة أيضًا بالمجاز والخيال والتصوير.

كذلك استنبط البحث السمات العامة لما أسماه "بلاغة وصف العمارة" وهي بلاغة يراها راجعة إلى توخي غرض الوصف ورعاية جمهوره المستهدف: لمن نَصِف؟ ولماذا نصف؟ إنَّ غاية الواصف هي التي تحدد طبيعة الوصف وبلاغته: أَهَو وصف روائي للمكان للإيحاء بثراء ساكنيه أو فقرهم، أم وصف واقعي للعمائر لترميمها، أو للترويجي السياحي لها، أو للتوثيق التاريخي لحالتها الراهنة أو للتوثيق الفني لطرازها المعماري...؟ فالوصف بليغ بقدر تحقيقه للوظيفة المرجوة منه،

وحُسْن الاختيار، اختيار أجزاء المبنى المميزة والوقوف عند صفاتها الفريدة –إنْ لم يكن الاستقصاء غرضًا– واختيار المفردات اللغوية والتراكيب النحوية والتشبيهات والمجازات الملائمة لها وللغرض من الوصف،

وقوة التأثير والاستمالة، فلا تعارُضَ بين تحقيق موضوعية الوصف وجماله وإمتاع القارئ؛ فالوصف الموضوعي لا يزال فنًّا، ومتلقيه إنسان. ويمكن تجنب الإملال بمزج الوصف الموضوعي بقليل من الذاتية وتنويع أساليب الوصف ولا سيما المنظور اللغوي. ويبقى الوصف الترويجي مرهونًا بقدرته على استمالة القارئ لزيارة المكان،

ويقظة الحواس جميعًا وفطنة الاستدلال، فلا يكتفي الواصف بحاسة البصر، ولا بوصف الحالة الراهنة وحدها. وعليه أن يستنطق الحجر، ويتأمل دلالة العمارة وأثرها في نفسه،

والاحتراز عن عيوب كالمبالغة في الوصف الذاتي، أو إبهام الموصوف، أو المغالاة في تزيينه (كثيرًا ما يجد الجمهور أن الإعلان رائع ثم يفاجأ بأن المروَّج له أدنى بكثير في الواقع مما أُعلِن عنه)، أو الهيام في أودية المجاز، أو الحشو. وقد استخلص البحث نماذج لهذه العيوب من عينته وناقشها. وهذا الاحتراز نفسه ليس مطلقًا، بل هو مُقيَّدٌ بغرض الوصف.

ومن التوصيات على المستوى النظري، وفي ضوء ما أظهره البحث من أن التقسيم الوظيفي النظامي للجملة له كفاءة عالية في بيان أنماطها في وصف العمارة وفي ربط التركيب النحوي بوظائف اللغة ربطًا مباشرًا –يوصي البحث بالاستعانة بإطار النحو الوظيفي النظامي في مزيد من البحوث في وصف المكان عامةً والأشخاص وفي تنمية مهارات لغوية أخرى إلى جانب الوصف مثل إعادة الصياغة والتلخيص.

على المستوى التطبيقي، لهذا البحث تطبيقات محتملة في قطاعات الآثار والعمارة والسياحة والتعليم؛ فيمكن تبني نتائجه في التوثيق التاريخي والفني لما يكشف عنه التنقيبُ الحديث من آثار، وفي وصف العمارة الحديثة أيضًا، وفي الصياغة اللغوية لنصوص الإعلانات والأفلام الوثائقية التي تتناول العمارة الأثرية، وكتيبات الإرشاد السياحي ومطويات الترويج السياحي للآثار وبطاقات التذكارات، وفي تعليم مهارة الوصف اللغوي وتنميتها لطلاب المدارس والجامعات، وفي التقييم اللغوي لجودة وصف العمارة؛ إذ يمكن تحويل عناصر وصف العمارة – كما حددها البحث وما يقترن بها من تراكيب نحوية وما لها من جوانب بلاغية– إلى نموذج إرشادي أو قائمة مراجعة وفحص.

ختامًا، ابتكر البحث تقسيمات جديدة للوصف تكشف عما أسماه "بلاغة وصف العمارة"، واستنبط سمات هذه البلاغة، وأظهرت نتائجه ارتباطًا –يكاد يصل إلى التلازم أحيانا– بين بعض عناصر وصف العمارة وأنماط نحوية معينة للجملة، وأن للبلاغة دورًا ضروريًّا في تحسين الوصف وحل بعض إشكالاته.

الهوامش

[١] الحمويّ، شهاب الدين، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله. (ت ٦٢٦هـ). *معجم البلدان*. دار صادر: بيروت. ١٩٩٥م. المقدمة ط٢، ج١، ص٨.

[٢] المقريزي، تقي الدين، أحمد بن علي بن عبد القادر. (ت ٨٤٥هـ). *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار*. دار الكتب العلمية: بيروت. ١٩٩٨م. ج١/ ص٥.

[٣] ميشيل ماكارثي، *قضايا علم اللغة التطبيقي*، ترجمة عبد الجواد توفيق محمود، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م. ص٢٣١.

[4] Halliday, M. A. K. (1994). *An introduction to functional grammar*. (2nd ed.). London: Edward Arnold. P. xxvii.

[٥] راجع دراسة مفصَّلة لهذا التنميط في: إبراهيم عبد التواب حمزة. *اللسانيات الوظيفية النظامية: الوافد الغربي والنحو العربي*. مؤسسة علوم الأمة. القاهرة. ٢٠٢٠.

[٦] قدامة بن جعفر البغدادي، أبو الفرج (ت ٣٣٧هـ). *نقد الشعر*. مطبعة الجوائب، قسطنطينية. ١٩٠٠. ص٤١.

[٧] سيزا قاسم. *بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ*. مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة. ٢٠٠٤. ص ١٢٣.

[٨] المرجع السابق، ص ١١٢–١١٣.

[٩] لمزيد من الإيضاح راجع دراسة ڤان ليڤِن للتمثيل المرئي للفاعلين في:

Waugh, L. R., Catalano, T., Masaeed, K. A., Hong Do, T., & Renigar, P. G. (2016). Critical discourse analysis: Definition, approaches, relation to pragmatics, critique, and trends. *Interdisciplinary studies in pragmatics, culture and society*, 83-85

[١٠] ابن رشيق، أبو على الحسن القيرواني (٤٦٣ هـ). *العمدة في محاسن الشعر وآدابه*. تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد. دار الجيل، بيروت. (١٩٨١م) ط٥، ج٢، ص٢٩٤.

[١١] المرجع السابق، ص٢٩٤

[١٢] إيليا حاوي. *فن الوصف وتطوره في الشعر العربي*. بيروت: دار الشرق الجديد. (١٩٥٩م). ص١٦.

[13] Martin, J. R., & White, P. R. (2003). *The language of evaluation* (Vol. 2). Basingstoke: Palgrave Macmillan.

[١٤] ابن الخطيب، لسان الدين (٧٧٦هـ). *ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب*. المحقق: مُحَمَّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة. ١٩٨٠م. ٢/ ٢٨٧. وفي رواية أخرى: "حُسْن البيان يري الظلماء كالنور"

[١٥] الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (٧٦٤هـ) *الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه*. إصدارات الحكمة: ليدز–بريطانيا. ١٩٩٩م. ص٥٧.

[١٦] المقدمة مقدمة الكتاب، وهي صفحة واحدة، وغير مرقَّمة.

[١٧] البحتري، أبو عبادة الوليد بن عُبيد. *ديوان البحتري*. تحقيق حسن كامل الصيرفي. دار المعارف، القاهرة. ط٣، ص ١١٥٢، ١١٥٩

[١٨] يلاحظ الباحث أنه يشيع في الجملة الوصفية في العربية المعاصرة استعمال أفعال مثل: يبدو، يظهر، بكثافة عالية؛ بتأثير الترجمة عن الإنجليزية (seem, look)، بخلاف الحال في عينة البحث.

[١٩] لم يرد أي من هذه الأفعال في زمن الماضي في عينة البحث. ولم أصادف من قبل استعمالًا لها بصيغة الماضي في هذه الوظيفة.

[٢٠] ديوان البحتري، ص ١١٥٦، ١١٦٠.

[٢١] أحمد شوقي. *ديوان شوقي*، تحقيق: أحمد مُحَمَّد الحوفي. نهضة مصر للطباعة والنشر. القاهرة. د.ت. ص ٨٠.

[٢٢] المرجع السابق، ص ٨١.

[٢٣] أحمد طاهر حسنين، وآخرون. *جماليات المكان*. عيون المقالات، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ١٩٨٨. ص ٥٩.

[٢٤] ابن يعيش، يعيش بن علي، أبو البقاء، موفَّق الدين. (٦٤٣هـ). *شرح المفصل للزمخشري*. تحقيق: إميل بديع يعقوب، بيروت: دار الكتب العلمية. ٢٠٠١. ٢/٢٣٣.

[٢٥] الصبان، أبو العرفان مُحَمَّد بن علي. (١٢٠٦هـ). *حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك*. بيروت: دار الكتب العلمية. ١٩٩٧. ٣/٨٦.

[٢٦] ابن مالك، جمال الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله. (٦٧٢هـ). *شرح تسهيل الفوائد*. (عبد الرحمن السيد، مُحَمَّد بدوي المختون، المحرر) هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. ١٩٩٠. ٣/ ٣٠٦-٣٠٧.

[٢٧] حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، ٣/٨٧.

[٢٨] قولنا: (القاهرة مدينة جميلة) من الجملة الوصفية، لأن الخبر يصلح للقاهرة ومدن كثيرة غيرها، بخلاف قولنا: (القاهرة عاصمة جمهورية مصر العربية). فالخبر هنا يُعيِّن المبتدأ، فالجملة تعيينية. والوظيفة مختلفة.

[٢٩] ابن السَّراج، أبو بكر مُحَمَّد بن السري بن سهل النحوي البغدادي (-٣١٦هـ). الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣. ١٩٩٦. ١/٦٩-٧٠.

[٣٠] للمزيد من التفصيل راجع إبراهيم عبد التواب حمزة، اللسانيات الوظيفية النظامية: الوافد الغربي والنحو العربي. ٢٠٢٠م.على الرابط التالي:
https://www.researchgate.net/publication/357539212_allsanyat_alwzyfyt_alnzamyt_alwafd_alghrby_walnhw_alrby

[٣١] بوجه عام يقصد بمصطلحات التكفيت والتصفيح والتمويه والترصيع والتطعيم تغطية سطح مادة أو بعضه بصفائح أو قطع من مادة أخرى. للفروق الفنية الدقيقة بينها راجع عاصم مُحَمَّد رزق، *معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية*، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠م.

[٣٢] ابن عاشور، مُحَمَّد الطاهر التونسي. *تفسير التحرير والتنوير*. الدار التونسية للنشر، تونس. ١٩٨٤. (٤/ ٢٢٥).

[٣٣] التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر (٧٩٢). *المطوَّل شرح تلخيص مفتاح العلوم*. تحقيق عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية، بيروت. ٢٠١٣م. ص ٤٨٢–٤٨٣

المصادر

١- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٤ م.

٢- سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، الجزء الثالث، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٧٩م.

٣- طارق والي، مدرسة السلطان حسن، القاهرة، مركز طارق والي، ١٩٩٦م.

٤- علماء الحملة الفرنسية، وصف مصر، ترجمة: زهير الشايب، ومنى زهير الشايب، الجزء العاشر، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م.

٥- المقريزي، تقي الدين، أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.

٦- هرتس، مكس، جامع السلطان حسن بمصر، ترجمة بهجت علي، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٩م.

المراجع

- إبراهيم عبد التواب حمزة. اللسانيات الوظيفية النظامية: الوافد الغربي والنحو العربي، القاهرة، مؤسسة علوم الأمة، ٢٠٢٠م.
- أحمد شوقي. ديوان شوقي، تحقيق: أحمد مُحَمَّد الحوفي، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ت.
- أحمد طاهر حسنين، وآخرون. جماليات المكان. عيون المقالات، ط٢، المغرب، الدار البيضاء، ١٩٨٨.
- إيليا حاوي. فن الوصف وتطوره في الشعر العربي. بيروت: دار الشرق الجديد. (١٩٥٩م).

- البحتري، أبو عبادة الوليد بن عُبيد. ديوان البحتري. تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط٣، القاهرة، دار المعارف، د.ت.
- التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر (٧٩٢)، المطوَّل شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٣م.
- الحمويّ، شهاب الدين، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله. (ت ٦٢٦هـ). معجم البلدان، المقدمة، ج١، بيروت، دار صادر، ١٩٩٥م.
- ابن الخطيب، لسان الدين (ت ٧٧٦هـ). ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب. المحقق: مُحَمَّد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٠م.
- ابن رشيق، أبو على الحسن القيرواني (ت ٤٦٣هـ). العمدة في محاسن الشعر وآدابه. تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، ج٢، بيروت، دار الجيل، ١٩٨١م.
- ابن السَّراج، أبو بكر مُحَمَّد بن السري بن سهل النحوي البغدادي (-٣١٦هـ). الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، ط٣، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦.
- سيزا قاسم. بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٤.
- الصبان، أبو العرفان مُحَمَّد بن علي (١٢٠٦هـ). حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، ج٣، بيروت: دار الكتب العلمية. ١٩٩٧م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (٧٦٤هـ) الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه، ليدز-بريطانيا، إصدارات الحكمة، ١٩٩٩م.
- ابن عاشور، مُحَمَّد الطاهر التونسي. تفسير التحرير والتنوير، ج٤، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤.

- عاصم مُحَمَّد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠م.
- قدامة بن جعفر البغدادي، أبو الفرج (ت ٣٣٧هـ). نقد الشعر. مطبعة الجوائب، قسطنطينية. ١٩٠٠.
- ابن مالك، جمال الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله (٦٧٢هـ). شرح تسهيل الفؤائد. (عبد الرحمن السيد، مُحَمَّد بدوي المختون، المحرر) هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ج٣، ١٩٩٠م.
- المقريزي، تقي الدين، أحمد بن علي بن عبد القادر. (ت ٨٤٥هـ). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.
- ميشيل ماكارثي، قضايا علم اللغة التطبيقي، ترجمة عبد الجواد توفيق محمود، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م.
- ابن يعيش، يعيش بن علي، أبو البقاء (٦٤٣هـ). شرح المفصل للزمخشري. تحقيق: إميل بديع يعقوب، ج٢، بيروت: دار الكتب العلمية. ٢٠٠١م.
- Capone, A., & Mey, J. L. (Eds.). (2015). Interdisciplinary studies in pragmatics, culture and society (Vol. 4). Springer.
- Halliday, M. A. K. (1994). An introduction to functional grammar. (2nd ed.). London: Edward Arnold.
- Martin, J. R., & White, P. R. (2003). The language of evaluation (Vol. 2). Basingstoke: Palgrave Macmillan.